سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

(5)

غزوة الأحزاب

(الخندق)

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود . بخيت ،

السيرة النبوية لكل الأعمار(غزوة الأحزاب)/ رجب محمود بخيت.- ط1.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

128 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع : 1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

الفهرس

قائمة المحتويات

سريّة علي بن أبي طالب إلى فدك:
سرية عبدالله بن رواحة إلى اليَسير بن رِزَام اليهودي:
سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب
سريّة كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:
سرية الخبط أو بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر
ومن الدروس المستفادة من هذه السرية :

غزوة الأحزاب (الخندق)

كانت تحركات المسلمين المتواصلة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية وتحديهم المستمر لقريش، وتهديدهم لطرق تجارتها، وكذلك إجلاء الرسول ص بني قينقاع وبني النضير عن المدينة، قد هيأت الظروف لتحالف المشركين مع يهود بني قريظة بهدف اجتثاث المسلمين من قاعدتهم المدينة.كما أن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوب يهود بني النضير بعد إجلاءهم من المدينة ، مما جعلهم يضمرون العداء ويتحينون الفرص للتشفي ممن طردهم - وما طردهم إلا بسبب ما ارتكبوه ضد المسلمين - أو التحريش ضده وكانوا لا يستطيعون تنفيذ الأول وهو التشفي وحده، وهذا طبعهم الذي أخبر الله ـ عنهم في أكثر من آية منها على سبيل المثال قولهم لنبيهم موسى عليه السلام :

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ [سورة المائدة: الآية 24].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بجلاء على جبنهم، وخبث نفوسهم وعلى عدم طاعتهم لنبيهم بعكس أمة محمد ص حيث كان حسناً ما أجاب به الصحابة ي يوم بدر رسول الله ص حين استشارهم في قتال كفار قريش حيث كان آخر ما قالوه "فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصُبُرٌ في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله"(1).

وعندما لم يستطع يهود خيبر - وخاصة بني النضير(2) - مجابهة المسلمين لجأوا إلى الأسلوب الثاني وهو أسلوب المكر والتحريش فقد روى ابن إسحاق قال: كان من حديث الخندق(3) أن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ص".

1) تفسير القرآن العظيم ، 2/38-39، والسيرة النبوية ، 2/615 ، صحيح البخاري مع الفتح ، 7/287 كتاب المغازي.
2) ذلك لأنهم خسروا الكثير من مناطق نفوذهم وسلطانهم فهم موتورون، وأكثر حقداً وتحمساً من غيرهم.
3) الخندق: حفير حول أسوار المدن معرب (كندة) وهي الحفرة، وخندق حفرة. ترتيب القاموس ، 2/116.

خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ص وقالوا: "إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله" فقالت لهم قريش: "يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟" قالوا بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 51](4).

قال ابن إسحاق : "فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ص، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له. ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤا غطفان(5) فدعوهم إلى حرب النبي ص، وأنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، واجتمعوا معهم فيه(6).

4)انظر ذلك في السـيرة النبوية ، 214/2-215، والبداية والنهاية ، 94/4، وتاريخ الطبري ، 565/2، والطبقات الكبرى ، 65/2، وعيون الأثر ، 55/2.

5) غطفان بن سعد بطن عظيم متسع كثير الشعوب والأفخاذ من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضـر بن نزار بن معد بن عدنان كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية، واستولت عليها قبائل طيء، وتنقسم إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة هي:أ - أشجع بن ريث بن غطفان. ب - عبس. ج - ذبيان.
وقد حاربوا رسول الله ص في غزوة الخندق، وجاءوا من بلادهم لذلك وكانوا أكثر الجموع في الأحزاب ثم ارتدوا بعد موته ص فحاربهم أبو بكرا لصـديق - ت - وبعث إليهم خالد بن الوليد - ت - فقتل منهم كثيراً وتشتت شملهم. معجم قبائل العرب ، 888/3، والمعارف لابن قتيبة ، ص 82.

6) السيرة النبوية لابن هشام ، 214/3، وسائر كتب المغازي.

لذلك قال أبو الحسن الندوي .

وتمت الاتفاقية العسكرية والتي كان قريش وغطفان واليهود من أهم أعضائها واتفقوا على شروط من أهمها :

أن تشارك غطفان في جيش الاتحاد بأكبر عدد ممكن.

أن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل تمر خيبر لسنة كاملة.

وأسندت قيادة الجيش لأبي سفيان بن حرب(7).

تاريخ الغزوة

اختلف العلماء في تحديد زمن هذه الغزوة وانحصرت أقوالهم فيها فيما بين السنة الرابعة والخامسة للهجرة النبوية الشريفة، غير أن جمهور أهل السير والمغازي اتفقوا على غزوة الأحزاب كانت في شهر شوال من السنة الخامسة من الهجرة (8) .

7) السيرة النبوية للندوي، ص 198،

8) البداية والنهاية ، 93/4 ، صحيح البخاري ، 44/5.

الدوافع والأسباب التي دعت إلى تكتل الأحزاب

إن الحقد الذي تمكن في قلوب اليهود على البشرية عامة وعلى المؤمنين خاصة قديم يرافق هذا الحقد عناد وصلف وكبرياء. ذلك الحقد الذي أعمى قلوبهم وأحرقها وشتت شملهم في الدنيا حيث نفاهم صمن المدينة وذلك بقوة الله التي تسانده حيث أخبر تعالى عن ذلك فقال:

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [سورة الحشر: الآية 2] .فلما نفدت حيل اليهود وأصبح مكرهم مكشوفاً وعجزهم واضحاً لجأوا إلى كفار قريش - ليدللوا بذلك على جبنهم وذلهم- لجأوا محرضين كفار قريش ليشنوا حرباً عامة على المسلمين في المدينة

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [سورة الأنفال: الآية 30]. وقد أعطوا العهود والمواثيق لكفار قريش أنهم سيكونون معهم محاولين بذلك تغطية الذلة والجبن الذي هو من أخلاقهم دائماً وأبداً.

وتكون الوفد من بني النضير ومن بني وائل، وحيكت المؤامرة في خيبر وانطلق بعدها الوفد يضم: سلام بن أبي الحقيق النضري - أبا رافع - وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري.

ومن بني وائل هوذة بن قيس الوائلي، وأبو عامر الوائلي، ووحوح بن عامر الوائلي كل هؤلاء توجهوا إلى مكة يرأسهم حيي بن أخطب الذي أعمى قلبه الحقد والحسد، وكان أهل مكة ينتظرون بفارغ الصبر من يشد من عزمهم ويساعدهم على حرب محمد صوأصحابه ي.

وسار الوفد حتى وصل مكة فسألهم أهلها: من أهدى أنحن أم محمد؟ وبينوا لهم صفة الطرفين قريش، ومحمد ص، وكانت صفة محمد التي عيب بها هي: أنه كان يعيب آلهتهم وينفرهم من عبادتها، ويدعوهم إلى عبادة الواحد القهار.

فكان رد أولئك اليهود في صالح الكفار ولكن كان الفشل حليفهم حيث رد عليهم القرآن وذلك بقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 51] .ثم ما لبثوا أن فاتحوهم في الموضوع الذي جاءوا من أجله فسر كفار قريش بذلك أكثر وأكثر ونشطوا له فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله ص، وقد قيل إنهم أعطوهم تمر خيبر سنة كاملة مقابل ذلك وأخبروهم أنهم سيكونون معهم ضده. وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا فيه وأجابوهم.

وقد تقدم ذكر ذلك في حديث ابن إسحاق المتقدم(9).

مما سبق يظهر بوضوح أن هذا الوفد قد تكون في خيبر فعلاً وكان اليهود هم المتزعمين لذلك الموقف المخزي، وهو موقف لا يستغرب منهم فتاريخهم مليء بالكيد والدسائس لغيرهم عموماً ولأهل الإسلام خصوصاً.

دور المنافقين في هذه الغزوة

وفي هذه الغزوة ظهر النفاق جليا حيث أظهر كثير من المنافقين العداء للإسلام مما زاد في تفاقم الأمر وخطورته. وقد حكي لنا القرآن ذلك الخطر وتلك الشدة فقال تعالى: إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [سورة الأحزاب: الآية 10].

---

9) السيرة النبوية ، 214/2.

فقد روى الطبراني عن ابن عباس قال: "احتفر رسول الله ص الخندق وأصحابه قد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع فلما رأى ذلك رسول الله ص قال: هل دللتم على رجل يطعمنا أكلة؟ قال رجل: نعم. قال إمالا(10) فتقدم فدلنا عليه. فانطلقوا إلى رجل فإذا هو في الخندق يعالج نصيبه منه فأرسلت امرأته أن جيء فإن رسول الله ص قد أتانا فجاء الرجل يسعى فقال بأبي وأمي وله معزة(11). ومعها جديها فوثب إليها فقال النبي ص: الجدي(12) من روائنا فذبح الجدي وعمدت امرأته إلى طحينة لها فعجنتها وخبزت وأدركت(13) وثردت فقربتها إلى رسول الله ص وأصحابه فوضع النبي ص أصبعه فيها فقال : "بسم الله اللهم بارك فيها إطعموا".فأكلوا منها حتى صدروا(14) ولم يأكلوا إلا ثلثها وبقي ثلثاها فسرح أولئك العشرة الذين كانوا معه أن اذهبوا وسرحوا إلينا بعدتكم وجاء أولئك العشرة مكانهم فأكلوا منها حتى شبعوا ثم قام ودعا لربة البيت وسمت(15)

---

10) قال في حاشية الصبان شارحاً لهذه الكلمة: "حذفت كان مع معموليها بعد أن في قولهم - أفعل هذا إمالا".
أي إن كنت لا تفعل غيره فما عوض عن كان، ولا نافيه للخبر ومنه قوله:
أمرعت الأرض لو أن مالا
لو أن نوقا لك أو جمالا
أو ثلة من غنم إمالا
التقدير: إن كنت لا تجد غيره. حاشية الصبان ، 245/1.

11) المعزة: هي الأنثى الماعز. مختار الصحاح 457.

12) الجدي: هو ولد المعزة.

13) أدركت: أي نضجت طحينتها.

14) صدروا أي شبعوا.

15) قال ابن الأثير في النهاية 397/2: في حديث الأكل سموا الله ودنّوا وسمتوا أي إذا فرغتم فادعوا بالبركة لمن طعمتم عنده والتسميت الدعاء.

عليها وعلى أهل بيتها ثم مشوا إلى الخندق.فقال: "اذهبوا بنا إلى سلمان وإذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها" فقال النبي ص لأصحابه: "دعوني فأكون أول من ضربها فقال: بسم الله فضربها فوقعت فلقة ثلثها فقال: الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة ثم ضرب أخرى فوقعت فلقة قال: الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة.

فقال عندها المنافقون نحن بخندق وهو يعدنا قصور فارس والروم"(16) .

عن الحسن في قوله تعالى: إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [سورة الأحزاب: الآية 10] . قال ظنونا مختلفة ظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يستأصلون وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون(17).

وقال ابن زيد : قال رجل يوم الأحزاب لرجل من صحابة النبي ص

يا فلان أرأيت إذ يقول رسول الله ص: إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله فأين هذا من هذا؟ وأحدنا لا يستطيع أن يخرج ليبول من الخوف" وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) [سورة الأحزاب: الآية 12].

16) المعجم الكبير، 376/11.

17) جامع البيان ، 132/21 ، وأنظر : تفسير ابن كثير ، 472/3

فقال: كذبت لأخبرن رسول الله ص خبرك "قال: "فأتى رسول الله ص فأخبره فدعاه فقال: ما قلت؟" قال: "كذب علي يا رسول الله ص ما قلت شيئاً ما خرج من فمي قط. قال الله يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ [سورة التوبة: الآية 74].

قال: "فهذا قول الله لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ [سورة التوبة: الآية 66]. (18).

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن فليح قال: "فلما أشتد البلاء على النبي ص وأصحابه نافق ناس كثير وتكلموا بكلام قبيح. فلما رأى رسول الله ص ما فيه الناس من البلاء والكرب جعل يبشرهم ويقول والذي نفسي بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدة وأني لأرجو أن أطوف البيت العتيق آمنا وان يدفع الله عز وجل إلي مفاتيح الكعبة وليهلكن الله كسرى وقيصر ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل".

18) تفسير الطبري، 133/21.

وقال رجل ممن معه لأصحابه: "ألا تعجبون من محمد يعدنا أن نطوف بالبيت العتيق وأن نقسم كنوز فارس والروم ونحن ها هنا لا يأمن أحدنا أن يذهب للغائط والله ما يعدنا إلا غروراً"(19).وهكذا نرى من خلال هذه الآثار أن للمنافقين دوراً خطيراً في هذه الغزوة بالذات ذلك لأنهم لا يظهرون إلا في أوقات الأزمات. أما عندما ينتصر المسلمون فلا يسمع لهم صوت. والقرآن الكريم فضحهم في أكثر من موطن ولكنا أردنا أن نبين أمرهم خاصة في هذه الغزوة الفاصلة(20).

موقف المسلمين من تحركات الأحزاب

لم تكن الاستخبارات الإسلامية غافلة عن تلك التحركات التي يقوم بها اليهود لتأليب القبائل العربية وقريش علي المسلمين ، فما أن بلغت أنباء تلك التحركات الحبيب محمد ص حتى قام بعقد مجلسه العسكري حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار وعرض عليه الموقف ، واستشارهم في كيفية مواجهة الموقف ، وتمخضت تلك المشاورة عن رأي سديد أدلى به سلمان الفارسي تحيث أشار بحفر الخندق لكي يحول بين العدو وبين المدينة فقال سلمان: يا رسول الله، ص إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا،

---

19) دلائل النبوة للبيهقي ، 402/3.

20) لأن الرسول ص قال: " لن يغزوكم بعد عامكم هذا ".

فهل لك يا رسول الله ص أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين (21).وعندما استقر الرأي -بعد المشاورة- على حفر الخندق، ذهب النبي ص هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه واختار للمسلمين مكانًا تتوافر فيه الحماية للجيش وذكر الواقدي: أن رسول الله ص ركب فرسًا له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب(22) إلى راتج(23)، وقد استفاد صمن مناعة جبل سلع(24) في حماية ظهور الصحابة.كان اختيار تلك المواقع موفقًا؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرة واقم(25) من جهة الشرق، وحرة الوبرة من جهة الغرب، تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ص وبني قريظة عهد ألا يمالئوا عليه أحدا، ولا يناصروا عدوًا ضده(26).

---

21) مغازي الواقدي ، 444/2، والطبقات الكبرى ، 66/2، زاد المعاد 271/3، السيرة الحلبية 631/1.
22) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.
23) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.
24) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان ، 236/3
25) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز ، 283/2، 285
26) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص442.

لقد كان الخندق ذا أهمية عظمى ذلك لأن المسلمين عندما بحثوا خطة الدفاع عن المدينة كانوا يفكرون في إيجاد وسيلة فعالة يتحاشون بها الالتحام الشامل المباشر مع جيوش الأحزاب المتفوقة عدداً وعدة في معركة فاصلة ليتسنى لهم تجميدها وشل حركتها على النحو الواسع الذي تريد تلك القوة الباغية.ولقد كان لتنفيذ هذا المشروع الدفاعي أكبر الأثر في تجميد نشاط جيوش الأحزاب وشل حركتها ثم فشل الغزو في النهاية(27).ولقد حفر الخندق في المنطقة الشمالية الغربية من المدينة لأن هذا المكان هو أصلح موقع يجب أن يعسكر فيه من يريد الدفاع عن المدينة لأنه الناحية الوحيدة المكشوفة التي لابد لأي غاز يريد المدينة من أن يتجه إليها ذلك لأن الجهات الأخرى محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة والأبنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة كالجبال وغيرها والتي لا تسمح لقوات الأحزاب الكبيرة أن تقوم بإجراءأي قتال على نطاق واسع كما تريد(28).لقد بدأ المسلمون في حفر الخندق في وقت عصيب - ذلك لأنهم يبادرون قدم العدو - وقد وكل صلكل أناس جزءاً من المكان المتفق على حفره وفي ذلك تنشيط لهم ودافع على المسابقة في إكمال ما يلزم كل طائفة علماً بأنه ص

27) محمد باشميل، غزوة الأحزاب ، ص 147
28) محمد باشميل، غزوة الأحزاب ، ص 149

قد وضع يده معهم ليدفعهم ويرغبهم أكثر في ذلك ، فأخرج البيهقي مطولاً من طريق كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده وساق الحديث إلى أن قال: وخط رسول الله ص الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع -وفيه- فمرت بنا صخرة بيضاء كسرت معاويلنا فأردنا أن نعدل عنها فقلنا: حتى نشاور رسول الله ص فأرسلنا إليه سلمان - وفيه- فضرب ضربة صدع الصخرة وبرق منها برقة وكبر المسلمون - وفيه - رأيناك تكبر فكبرنا بتكبيرك فقال: إن البرقة الأولى اضاءت لها قصور الشام فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم - وفي آخره- ففرح المسلمون واستبشروا(29).

ولقد حفروا بجد ونشاط وكانت المسافة طويلة وشاقة حيث كان الحفر من طرف بني حارثة - وبنو حارثة- في طرف الحرة الشرقية - إلى المذاد- من طرف بني سلمة بعد جبل بني عبيد من بني سلمة.وكان هذا مع ما كان بهم من الجوع وبدائية الأدوات التي كانوا يستخدمونها إلا أن اعتمادهم على الله ثم على قوة إيمانهم به وبرسوله وبمشروعية الدفاع عن الإسلام وعن النفس كل ذلك جعلهم ينجزون ما بدأوا فيه بسرعة فائقة إذا قيس بأعمال الآلات الحديثة اليوم.ولقد عمل صبيده الشريفة مع المسلمين ليقوي نشاطهم وتزداد رغبتهم

---

29) فتح الباري ، 397/7.

كما أنه صكان يبادلهم الأهازيج. لأن الشعر والتمثل به مما يزيد في النشاط. والمسلم عليه أن يتأسى برسوله صفحينما يرى البذخ الذي فيه بعض الناس والفقر الذي فيه آخرون - يقول - اللهم إن العيش عيش الآخرة. لأنها كلمة ترتفع بالنفس عن الدنيا الفانية وإغراءاتها المذلة".هكذا كان صوأصحابه في صراع دائم مع الدنيا وإغراءاتها ولم تجد إليهم سبيلاً بل كانوا على يقين تام بأن الآخرة أحسن وأولى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ [سورة الضُّحى: الآية 4].وكانوا يعملون هذه الأعمال المجيدة الشاقة دفاعاً عن هذا الدين الحنيف وهم في حالة صعبة حيث الجوع والبرد القارس ومع ذلك كانت عزائمهم صلبة تكسر الصخور.ومن أيقن مثلهم بخراب الدنيا وذهابها عمل لعمارة الآخرة ونسي الآلام كلها وتخطى كل العقبات . وعندما قرر الرسول ص حفر الخندق - بعد المشاورة - أمر بنقل النساء والذراري إلى الآطم(30) الحصينة حتى لا يصيبهم مكروه. لأنه كان يتخوف عليهم من اليهود - بني قريظة - حيث كانت منازلهم مما يلي العوالي(31) وكانوا قد مالؤوا الأحزاب ووافقوهم على نقض العهد الذي ابرموه مع النبي ص. فقد روى الطبراني

30) الأطم بضمة وضمتين القصر وكل حصن مبني بالحجارة وكل بيت مربع مسطح. القاموس، 74/4.
31) العوالي بالفتح جمع العالي ضـــيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال وقيل ثلاثة (وهو الصـــحيح). انظر: مراصد الإطلاع 970/2.

حيث قال: " عن هرير بن عبد الرحمن بن رافع بن خديج عن أبيه عن جده قال: "لما كان يوم الخندق لم يكن حصن أحصن من حصن بني حارثة فجعل النبي ص النساء والصبيان والذراري فيه" فقال: "إن ألمَّ بكن(32)

أحد فالمعن بالسيف" فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان - أحد بني جحاش على فرس حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء انزلن إلى خير لكن فحركن السيف فأبصره أصحاب النبي ص فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له ظهير بن رافع فقال: "يا نجدان ابرز فبرز إليه فحمل عليه فرسه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي ص"(33).

---

32) إن ألم بكن أي إذا حصل ذلك وهو دخول أي غريب عنهم اليهن.

33) مجمع الزوائد ، 133/6، وهو في المعجم الكبير، 318/4حديث ، 4378 ، تاريخ الأمم والملوك، 570/2- 571

تواضعه ص ومباشرته الحفر بنفسه

كان صلوات الله عليه وسلامه المثل الأعلى في التواضع، وذلك لحسن أخلاقه التي مدحه الله به، وهذا حاله صفي السلم والحرب على السواء. وتواضعه عليه الصلاة والسلام في هذا الموضع قليل من كثير.فقد روى البخاري عن عبد الواحد بن أيمن عن أبيه قال: "أتيت جابراً ت فقال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة(34) فجاءوا النبي ص فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق" فقال: "أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ص المعول(35)

فضرب فعاد كثيباً(36) أهيل أو أهيم"(37) فقلت يا رسول الله: ص "ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي ص شيئاً ما كان في ذلك صبر فعندك شيء ؟ قالت عندي شعير وعناق(38). فذبحتُ العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة(39) ثم جئت النبي ص والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي(40)

---

34) الكدية : هي القطعة الشديدة الصلبة من الأرض.

35) المعول: الفأس العظيمة التي ينقر بها الصخر والجمع المعاول، مختار الصحاح ، ص 463.

36) الكثيب: الرمل المستطيل المحدودب. النهاية في غريب الحديث،152/4.

37) المعنى أنه صار رملاً يسيل ولا يتماسك قال تعالى: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً} أي رملاً سائلاً، وأما أهيم فقال عياض: ضبطها بعضهم بالمثلثة وبعضهم بالمثناة وفسرها بأنها تكسرت. فتح الباري 396/7.

38) صحيح البخاري مع الفتح ، 395/7، والعناق الأنثى من الماعز ما لم يتم له سنة، النهاية ، 311/3.

39) البرمة: هو القدر مطلقاً وهي في الأصـــل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. النهاية ، 121/1.

40) الأثافي: هي حجار ثلاث يوضع عليها القدر. مختار الصحاح ، 84.

قد كادت تنضج فقلت: طعيم(41) لي فقم أنت يا رسول الله ص ورجل أو رجلان قال: كم هو فذكرت له: "فقال كثير طيب". قال: قل لها: "لا تنزع البرمة ولا الخبر من التنور(42)

حتى آتي" . فقال: قوموا فقام المهاجرون والأنصار. فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ص بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت: هل سألك قلت: نعم. فقال: "ادخلوا ولا تضاغطوا" (43) فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر(44) البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف(45) حتى شبعوا وبقي بقية. قال: "كلي هذا واهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة" (46).

وهناك أحاديث صحيحة تبين بوضوح مباشرته ص الحفر ونقل التراب مع صحابته يمن ذلك ما روي البخاري ونصه: عن البراء تقال: "كان النبي ص ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه(47). يقول:

---

41) بالتصغير للقلة.

42) التنور: الذي يخبز فيه ومنه قوله تعالى: {وَفَارَ التَّنُّورُ} مختار الصحاح ، 79.

43) فيه دليل على كثرتهم ومعنى لا تضاغطوا: أي لا تتزاحموا.

44) أي يغطى.

45) أي يغرف مرقاً من البرمة.

46) فتح الباري ، 395/7، مسند الإمام أحمد، 300/3-301، سنن النسائي، 43/6 باب غزوة الترك والحبشة والرواية ليست عن جابر وإنما هي عن رجل من الصحابة ، دلائل النبوة ، 417/3.

47) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه. الفتح، 399/7.

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينـا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينـا إذا أرادوا فتنة أبينـا

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا" (48).

وهذا يدل بجلاء على مشاركته صلهم وعلى تواضعه وقد جاء عند أحمد عن أم سلمة ل قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللبنوقد أغبر شعر صدره وهو يقول: "اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة" (49).

لذلك قال ابن هشام: "فلما سمع بهم رسول الله ص، وما أجمعوا عليهمن الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ص ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه فدأب فيه ودأبوا وأبطأ عن رسول الله ص،

48) فيه دليل على تواضـــعه ص ، وانشـــراح صـــدره ومجاراته لأصـــحابه فيما هو حلال وطيب. وأنظر أيضـــاً:صــحيح مسـلم 1430/3 باب غزوة الأحزاب وهي الخندق.ومسـند الإمام أحمد ، 285/282/4-303/302/300/291 ، وسنن الدارمي ، 221/2، والمسند ، 227/1 رقم (317).

49) مسند الإمام أحمد ، 289/6.

وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ص ولا إذن.أما المسلمون فكانوا لا يستأذنون إلا عند الضرورة فإذا قضوا حاجاتهم رجعوا إلى ما كانوا فيه من عمل رغبة في الخير واحتساباً له وقد أنزل الله في ذلك قرآنا يتلى فقال تعالى:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة النور: الآية 62]. حيث نزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة والرغبة في الخير والطاعة لله ولرسوله ص(50).

ثم قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون ويذهبون بغير إذن من النبي ص

لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63)[سورة النور: الآية 63]

50) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 216/2.

وهذه الآيات عامة ساقها ابن هشام وغيره للاستدلال بها على الفريقين. وعامة في الاستئذان سواء في الحرب أو في السلم وهي في الحقيقة نزلت كما قال ابن كثير في الذين يستأذنون في الخروج من الجمعة وغيرها(51).

وكان لتقسيم العمل وإسهام الرسول ص فيه إلى جانب أصحابه، والإيمان العميق الذي كان يدفع المسلمين إلى بذل كل طاقاتهم لإنجاز الخطة الدفاعية وشعورهم بعظم الخطر المحدق إن هوجمت المدينة قبل أن ينجز حفر الخندق. فضلاً عن تأميل الرسول ص جنده بالنصر القريب في الأرض والأجر العريض في السماء.

وكان لهذه الأمور جميعاً الأثر الحاسم في تمكين المسلمين من حفر الخندق الذي يمتد "اثنا عشر ألف ذراع"(52). في ستة أيام قبل أن يدهمهم الأعداء(53).

وبعد أن اجتمع الوفد اليهودي بقيادة زعيمهم الحاقد حيي بن أخطب بقواد قريش وزعمائها، اجتمع زعماء قريش في دار الندوة للمشاورة وخرجوا بقرار نهائي هو الموافقة على ما أراده اليهود منهم وقد صادف هوى في نفوسهم ألا وهو استئصال الإسلام والقضاء على حامليه

---

51) تفسير القرآن العظيم ، 306/3.

52) هذه المسافة تقدر بستة كيلوات.

53) الطبقات الكبرى ، 66/2- 67، إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص202

كما كانوا يعتقدون ذلك؛ لأن نظرتهم كانت تغتر بالعدد الكبير الذي حشدوه إلى أرض المعركة، ونسوا أن النصر من عند الله، وأنه هو الذي نصر المؤمنين مع قلتهم في بدرٍ وغيرها. تجاهلوا ذلك كله وكان يراودهم أمل متعلق بالكثرة الكاثرة التي ذهب اليهود من أجلها إلى غطفان وبقية القبائل المعادية للإسلام في ذلك الوقت.

ولكنهم كما قال الله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [سورة الأنفال: الآية 30]. وهم مع ذلك لا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى قال: فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [سورة البقرة: الآية 249].

قال ابن إسحاق: "ولما فرغ رسول الله ص من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة(54) بين الجرف وزغابة(55) في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة وأقبلت غطفان، ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي(56) إلى جانب أحد"(57). وقد ذكر ابن سعد أن زعماء قريش دخلوا دار الندوة وعقدوا اللواء فيها وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، و قال: "لما أجلى رسول الله ص بني النضير ساروا إلى خيبر فخرج نفر من أشرافهم ووجوههم إلى مكة فألبوا قريشاً ودعوهم إلى الخروج إلى رسول الله ص، وعاهدوهم على قتاله ووعدوهم لذلك موعداً ثم خرجوا من عندهم

حتى أتوا غطفان وسليماً ففارقوهم على مثل ما اتفقوا عليه مع قريش". قال ابن سعد: "عندئذ تجهزت قريش وجمعوا أحابيشهم ومن تبعهم من العرب فكانوا أربعة آلاف وعقدوا اللواء في دار الندوة، وحمله عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة،

---

54) رومة: بضم الراء وسكون الواو: أرض بالمدينة بين الجرف وزغابة نزلها المشركون عام الخندق. ياقوت الحموي، معجم البلدان ، 104/3.

55) زغابة أوالغابة تبدأ من مجتمع الأسيال على سبعة أميال من جبل سلع على طريق الشام، وبها أشجار ومراع يحتطب منها الناس ويرعون شجرها2. ياقوت : معجم البلدان، 141/3-142، الفيروزآبادي ، القاموس، 79/1.

56) نقمي: بالتحريك والقصر: موضع من أعراض المدينة كان لآل أبي طالب، قال ابن إسحاق، وأقبلت غطفان يوم الخندق، ومن تبعها من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أحد. ياقوت : معجم البلدان 300/5، الفيروزآبادي، القاموس، 183/4

57) السيرة النبوية ، 215/2، والروض الآنف ، 261/3.

وقادوا معهم ثلاثمائة فرس وكان معم ألف وخمسمائة بعير قال: "وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب بن أمية"، ووافقهم بنو سليم بمر الظهران وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس". (58)

والخلاصة أن عدد جيش الكفار كان عشرة آلاف، وهو العدد الإجمالي الذي ذكره ابن إسحاق وغير واحد.وعلي الجبهة الثانية كان رسول الله ص قد أتم استعداداته لمواجهة الأحزاب ، قال ابن إسحاق: "وخرج رسول الله ص، والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين" ، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة وكان يحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة(59). وقسم النبي ص أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريدأن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسةنبيهم ص، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه،

---

58) الطبقات الكبرى ، 5/2

59) السـيرة النبوية ، 220/2 ، الروض الآنف ،261/3 ، الطبقات الكبرى ، 66/2، جامع البيان، 130/21 ، دلائل النبوة، 452/3 ، الدرر في اختصـار المغازي والسـير،ص 181، الكامل في التاريخ، 123/2 ، عيون الأثر، 57/2 ، البداية والنهاية، 102/4 ، تاريخ الخميس 480/1.

وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً وقيادة، فقد بعث رسول الله ص سلمة بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة.

وكان عباد بن بشر على حرس قبته صمع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة(60).

قال ابن القيم: "والذي كان على حرسه ص يوم الخندق الزبير بن العوام " (61).

وعندما استقر صفي معسكره المختار حسب الخطة العسكرية الناجحة نظم جنود المسلمين ووزعهم فبعضهم للحراسة على الخندق ومنافذه وبعضهم على قبته لأنها كانت مستهدفة من الأعداء. وكان صيختلف بنفسه إلى ثلمة(62) في الخندق يحرسها وكان الوقت شتاء شديد البرودة ، فعن عائشة ل قالت: "كنت مع رسول الله ص وهو بالخندق فكان رسول الله ص يتعاهد ثغرةمن الجبل يخاف منها فيأتي فيضطجع في حجري ثم يقوم فيتسمع فسمع حس إنسان عليه الحديد فانسل"(63)

---

60) الطبقات الكبرى، 67/2.

61) وكان الذي قام علي حراسته ص يوم بدر حين نام في العريش سعد بن معاذ ويوم أحد محمد بن مسلمة .أنظر : زاد المعاد 127/1.

62) الثلمة والثغرة بمعنى واحد وهي الفتحة. النهاية في غريب الحديث، 213/1.

63) أنسل : أسرع خفية. القاموس المحيط، 57/4.

في الجبل فقال رسول الله ص: "من هذا؟". فقال: "أنا سعد جئتك لتأمرني بأمرك" فأمره النبي ص أن يثبت في تلك الثغرة". قالت عائشة: "فنام رسول الله ص في حجري حتى سمعت غطيطه(64) فقالت عائشة لا أنساها لسعد"(65). وحديث البزار وإن كان ضعيفاً إلا أن ما جاء عند البخاري والترمذي يقويه والحديث يدل بوضوح على: الشدة التي عاناها الرسول ص، وأصحابه في هذه الغزوة وأن الخطر الذي أحدق بهم كان كبيراً حتى أنه صكان يتعاهد تلك الثغرة بنفسه يخاف على المسلمين منها وأن القائد عليه ما على جنوده من حراسة ومرابطة؛ بل إن القائد هو المثل الأعلى لجنوده والرسول ص كان خير قائد(66).

قالت أم سلمة ل: شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف المريسيع وخيبر وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ص ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة(67)، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري فالمدينة تحرس حتى الصباح نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً. حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً.

---

64) غط النائم إذا سمع له صوت من الفم. القاموس المحيط ، 376/2.
65) الهيثمي ، كشف الأستار ، 333/2. قال: "في الصحيح طرف منه ثم قال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف" أنظر: مجمع الزوائد ، 135/6.
66) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص 229
67) الحرج : أضيق الضيق. النهاية في غريب الحديث ، 361/1.

قال وكان رسول الله ص يختلف إلى ثلمة في الخندق يحرسها فإذا آذاه البرد دخل قبته فأدفأته عائشة ل في حضنها(68) فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة يحرسها ويقول ما أخشى على الناس إلا منها(69).

تواطؤ اليهود مع المشركين وعزمهم على ضرب المسلمين من الخلف

لقد اشتد البلاء على المسلمين في هذه الغزوة بالذات؛ لأن قريشاً جاءت بحلفائها كما جاءت غطفان بكل قوادها وحلفائها مستهدفين استئصال الإسلام والمسلمين وفي أثناء الاستعداد لهذه الجموع الزاحفة جاء عدو الله حيي بن أخطب وهو أحد الأعضاء الذين حزبوا الأحزاب جاء إلى كعب بن أسد رئيس القبيلة الباقية من اليهود وهي قبيلة بني قريظة وجادله على نقض العهد وفتله في الذروة والغارب حتى وافق على ذلك بشروط تقبلها عدو الله حيي بن أخطب. وبنوقريظة كما هو معروف كانوا يسكنون في العوالي أي في الجنوب الشرقي من المدينة على وادي مهزور (70)

---

68) الحضن: مادون الإبط إلى الكشح وحضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه. مختار الصحاح 142.
69) المغازي للواقدي ، 467/2
70) مهزور وقيل مهزوز واد بالمدينة كان يسمى وادي قريظة كان يسيل بماء المطر يهبط من مفرق حرة واقم ثم يسيل ويصب في وادي بطحان. معجم البلدان ، 234/5.

إذن فهم يعتبرون خلف المسلمين ويكونون أخطر على هذه الحال لأن الضربة من الوراء تؤثر أكثر حيث أن المسلمين يستعدون ومستحفزون لأعدائهم الذين أمامهم ولكن الله نصر المسلمين وخذل أعداءه وأعداءهم

وقد وصف الله ـ ذلك البلاء وتلك الشدة التي أتت على المسلمين لم يأت عليهم مثلها حيث قال سبحانه: إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) [سورة الأحزاب: الآية 10،11]. وقال تعالى مبيناً مناصرة وموافقة اليهود (بني قريظة) للأحزاب: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (27)[سورة الأحزاب: الآية 26،27].

فقد وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسعد القرظي صاحب عقد بني قريظة(71)، وعهدهم وكان قد وادع رسول الله ص على قومه عاقده على ذلك وعاهده فلما سمع كعب بحيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي ويحك(72)

يا كعب افتح لي قال ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤم وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءَ وصدقاً"، قال: "ويحك افتح أكلمك". قال: "ما أنا بفاعل قال والله إن أغلقت دوني إلا عن جشيشتك(73) أن آكل معك منها فاحفظ(74) الرجل ففتح له". فقال: "ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ببحر طام(75) جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفانعلى قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي إلى جانب أحد. قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا(76)

---

71) أي أنه كان رئيسهم وسيدهم.

72) ويح: كلمة ترحّم وتوجّع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها وقد يقال بمعنى المدح والتعجب وهي منصوبة على المصدر. النهاية 235/5.

73) الجشيشة: طعام يصنع من الجشيش وهو البر يطحن غليظاً ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. النهاية في غريب الحديث ، 273/1.

74) احفظه: أغضبه.

75) طام: مرتفع ويريد كثرة الرجال.

76) على أن لا يتركوا أو يغادروا المكان.

حتى نستأصل محمداً ومن معه قال فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام(77) قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءاً فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب(78) حتى سمع له على أن أعطاه عهداً (من الله) وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ص"(79).

وقد أرسل النبي ص عيونه متحرياً عن نقض اليهود للعهد الذي أبرموه معه صقال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ص الخبر وإلى المسلمين بعث رسول الله ص سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ سيد الأوس وسعد بن عبادة بن دليم أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بني عمرو بن عوف

---

77) الجهام السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه.

78) هذا مثل وأصله في البعير يستعصي عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه وتفتل هناك فيجد لذة فيأنس عند ذلك.

79) الروض الأنف ، 422/3 ، جامع البيان ، 129/21- 130.

فقال انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً(80) أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. قال فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم (فيما) (81) نالوا من رسول الله ص وقالوا من رسول الله ص ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فشاتمهم سعد ابن معاذ(82) وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى (83) من المشاتمة

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ص فسلموا عليه ثم قالوا عضل والقارة أي كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه فقال رسول الله ص: "الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين" (84). وقد أورد ابن كثير هذه القصة وفيها زيادة حسنة فقال بعد أن ذكر محاورة حيي بن أخطب لكعب: وقد تكلم عمرو بن سعد القرظي فأحسن فذكرهم ميثاق رسول الله ص وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره

---

80) الحنوا لي لحنا: أي قولوا لي قولاً أفهمه ويخفى على غيري. القاموس 366/4.

81) قوله (فيما نالو) وعند الطبري ونالوا.

82) فشاتمهم سعد بن معاذ (عند الطبري فشاتمهم سعد بن عبادة) وكذا عند ابن كثير في البداية ، 104/4.

83) أربى مأخوذ من الربا وهو لغة الزيادة.

84) ابن هشام ،السيرة النبوية ، 220/2- 221- 222 ، جامع البيان ، 129/21- 131، تاريخ الأمم الملوك ، 46/3، 47، السهيلي ، الروض الأنف 268/3، عيون الأثر ، 59/3.

وقال: "إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوّه" ثم قال ابن كثير : قال ابن إسحاق: "فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمع له - يعني في نقض عهد رسول الله ص وفي محاربتهمع الأحزاب ...وأمر كعب بن أسد وبنو قريظة حيياً أن يأخذ لهم من قريش وغطفان رهائن تكون عندهم لئلا ينالهم ضيم إن هم رجعوا ولم يناجزوا محمداً.

قالوا وتكون الرهائن تسعين رجلاً(85) من أشرافهم فنازلهم(86)

حيي على ذلك فعند ذلك نقضوا العهد ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعنة(87) أسد وأسيد وثعلبة فإنهم خرجوا إلى رسول الله ص"(88).

تخذيل المنافقين للصف الإسلامي

إن موقف المنافقين وخذلانهم للمسلمين في الأوقات الحرجة أوقات الضيق والمواقف الصعبة شيء معتاد ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز دينه قال عبد الله بن أبي بن سلول: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام

---

85) البيهقي ، الدلائل ، 446/3 ، ابن كثير في البداية ، 103/4، المقريزي ، الإمتاع ، 237/1

86) أي التزم لهم بذلك.

87) وهم من اليهود إلا أن ابن هشام قال إنهم ليسو من بني قريظة وإنما هم من بني هدل ونسبهم فوق ذلك وهم بنو عم القوم. ابن هشتم ، السيرة النبوية 238/2.

88) البداية والنهاية ، 103/4- 104، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 222/2.

ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب".

فلما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله ص لملاقاة أعدائه حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني(89) ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس فرجع بمن إتبعهمن قومه من أهل النفاق (90) واستمر وضعهم هذا حتى جاءت هذه الغزوة - غزوة الخندق-

فأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم سورة الأحزاب فقد ذكر سبحانه مجيء الأحزاب والحالة الشديدة التي عاناها المسلمون والبلاء الذي امتحنهم الله به فثبت المؤمنون وانكشف أعداء الله المنافقون فقال تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا [سورة الأحزاب: الآية 12].وقال تعالي : وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (13) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (14) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (15) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (16)

89) يشير إلى المشاورة التي دارت قبل الخروج إلى أحد وكان من رأي كبير المنافقين القعود في المدينة ووافق الرسول مع القائلين بالخروج فأخذ من هذا حجة وذريعة.

90) ابن هشام ، السيرة النبوية، 64/2.

قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (17) ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (19) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20)[سورة الأحزاب: الآية 20-13]

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ص للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛

زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك موقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام(91).

ما دار في غزوة الأحزاب من مناوشات

بعد أن تم حفر الخندق ووصلت الأحزاب ونقض بنو قريظة العهد المبرم مع رسول الله ص ونجم النفاق وقال المؤمنون: وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) [سورة الأحزاب: الآية 22] وأشتد البلاء حيث بين الله سبحانه وتعالى ذلك الموقف بقوله: إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) [سورة الأحزاب: الآية 10،11]

91) انظر: السيرة النبوية الصحيحة ، 425/2

تزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح، وعرف المسلمون مَنْ يتربص بهم وراء هذا الحصار فقرروا مواصلة المرابطة في مكانهم ينضحون بالنبل كل مقترب ويتحملون لأواء هذه الحراسة التي تنتظم السهل والجبل وتتسع ثغورها يوماً بعد يوم. وبدأ الحصار واشتدت وطأته وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم وكانوا يحاولون شتى المحاولات لتحطيم هذا الحصار وهم في كل ذلك يفشلون أمام صمود المسلمين: "فأقام رسول الله ص مرابطاً وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بينهم حرب إلا الرميا(92) بالنبل (93).

قال ابن إسحاق: "في سياق حديثه عن المناوشات التي حصلت بين الفريقين ثم تيمموا(94) مكاناً ضيقاً(95) فضربوا خيلهم فاقتحمت(96) منه فجالت بهم في السبخة(97)

92) الرميا بكسر الراء والميم مشددتين وتخفيف الياء أي المراماة.

93) ابن هشـــام ، الســـيرة النبوية، 224/2، البداية والنهاية ، 104/4 ، الكامل لابن الأثير ، 124/2، 6 عيون الأثر، 60/2، تاريخ الأمم والملوك ، 47/3، جامع البيان ، 128/21.

94) تيمموا: قصدوا. النهاية في غريب الحديث ، 300/5.

95) قال بعض المؤرخين -: "أن هذا المكان أغفله المســلمون ويمكن أن يقال أنه لصــعوبة المكان وصــلابته ولأن المنطقة كما هو معروف- أكثرها صخرية - كان هذا المكان ضيقاً والله أعلم".

96) اقتحمت: اقتحم في الأمر رمي بنفسه فيه من غير رويّة. مختار الصحاح 522.

97) السبخة بالتحريك واحدة السباخ وهي الأرض الملحة النازة. معجم البلدان 183/3.

بين الخندق وسلع.وخرج علي بن أبي طالب ت في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة(98) التي أقحموا منها خيلهم وأقبلت الفرسان تعنق(99) نحوهم(100).

وهنا أحس الفريقان بالخطر وكانت هي الشرارة الأولى التي ألهبت حماس الفريقين.

قال ابن إسحاق: "وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً(101) ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له يا عمرو:"إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه

قال له: أجل". قال له علي: "فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام" قال: "لا حاجة لي بذلك". قال "فإني أدعوك إلى النزال" فقال له: "لم يأبن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك". قال له علي: "لكني والله أحب أن أقتلك" فحمي(102) عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره (103) وضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي ت وخرجت خيلهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

---

98) الثغرة: الثلمة وهي موضع المخافة من أطراف البلاد. النهاية في غريب بالحديث 213/1.
99) العنق: بفتح العين والنون. نوع من سير الإبل والخيل وهو الوسط بين السريع والبطئ.
100) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 224/2.
101) معلماً: المعلم الذي يجعل له علامة يعرف بها.
102) فحمى: أشتد غضبه.
103) عقر البعير والفرس بالسيف (فانعقر) أي ضرب قوائمه. المختار الصحاح 445.

قال ابن إسحاق: "وقال علي رضوان الله عليه في ذلك:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت رب محمد بصوابي

فصددت حين تركته متجدلاً كالجذع بين دكادك وروابي

وعففت عن أثوابه ولو أنني كنت المقطر بزّني أثوابي(104)

لا تحسبن الله خاذل دينه ونبيه يا معشر الأحزاب(105)

قال ابن هشام: "وأكثر أهل الشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب"(106)..

---

104) المقطر: هو الذي يلقي على قطره - وتقطر - تهيأ للقتال ورمي بنفسه من علو. وبزّني: سلبني ثيابي أو أي شيء كان معي. القاموس المحيط ، 119/2، 116.

105) هكذا جاء عند ابن إسحاق وفي الاكتفاء للكلاعي ، 168/2.

106)ابن هشام ، السيرة النبوية ، 225/2.

قال البيهقي : "وخرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد فنادى من يبارز؟ فقال علي ت أنا لها يا نبي الله فقال : إنه عمرو اجلس، ونادى عمرو ألا رجل وهو يؤنبهم"(107)

ويقول أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليّ رجلاً فقام علي فقال أنا يا رسول الله ص فقال اجلس ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز؟

ووقفت إذ جبن المشجع موقف القرن(108) المناجز

قال فقام علي ت فقال يا رسول الله: "أنا فقال إنه عمرو فقال وإن كان عمراً فأذن له رسول الله ص فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول:

107) التأنيب المبالغة في التوبيخ والتعنيف. النهاية في غريب الحديث، 73/1

108) القرن: بكسر المثناة المعجمة وهو الكفؤ في الشجاعة. المختار ، 532.

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نية وبصـيرة والصدق منجا كل فايز

إني لأرجو أن أقـيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجـلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

وفي رواية أنه صأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته وقال: "اللهم أعنه عليه" وفي لفظ "اللهم هذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين" (109). فقال له عمرو من أنت؟ قال أنا علي قال ابن عبد مناف؟ قال أنا علي بن أبي طالب(110). فقال يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن فإني أكره أن أهريق دمك ؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار،

109) ذكر هذا صاحب السيرة الحلبية ، 641/2.
110) واسم أبي طالب - عبد مناف.

ثم أقبل نحو علي مغضبا واستقبله علي بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه عليعلى حبل عاتقه فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله ص التكبير، فعرفناأن عليا قد قتله فثم يقول علي :

أعليّ تقتحم الفوارس هكذا عني وعنهم أخروا أصحابي

اليوم تمنعني الفرار حفيظتي ومصمم في الراس ليس بنابي

إلى أن قال:

عبد الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت رب محمد بصوابي

قال ثم أقبل علي نحو رسول الله ص ووجهه يتهلل(111).

قال ابن سعد: "ثم أُجْمع رؤساؤهم أن يغدوا يوماً فغدوا جميعاً ومعهم رؤساء سائر الأحزاب وطَلَبوا مضيقاً من الخندق يقحمون منه خيلهم إلى النبي ص وأصحابه فلم يجدوا ذلك

111) الدلائل للبيهقي 439/3، البداية والنهاية، 106/4- 107، والروض الأنف، 279/3.

وقالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تصنعها قالوا فمن هناك إذاً، فصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون فعبر عكرمة بن أبي جهل ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب وهبيرة بن ابي وهب وعمرو بن عبد ود وذكر المبارزة إلى أن قال: وولي أصحابه(112)هاربين وظفرت بهم خيولهم(113)وحمل الزبير بن العوام على بالسيف فضربه فشقه باثنين"(114).

ولما قتل نوفل بن عبد الله كبر ذلك على المشركين وأرسلوا إلى رسول الله ص إنا نعطيكم الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه فرد إليهم رسول الله ص أنه خبيث خبيث الدية فلعنه الله ولعن ديته ولا نمنعكم أن تدفنوه ولا أرب(115) لنا في ديته وقيل أعطوه في جثته عشرة آلاف"(116).واستمرت المعركة والحصار مضروب فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دب القنوط والتخاذل في صفوف المهاجمين على حين بقيت جبهة المدافعين عن حوزة الدين الإسلامي - سليمة لم تثلم

112) يرجع الضمير في قوله - وولي أصحابه - إلى عمرو بن عبدود.
113) الضمير محتمل الرجوع إلى خيل المسلمين وقد يكون راجعا إلى خيل الكفار.
114) الطبقات الكبرى ، 68/2.
115) الأرب: الحاجة. مختار الصحاح ،ص 13.
116) عيون الأثر ، 60/2.

ورغم كثرة الأعداء وتحرشاتهم ومناوشاتهم المستمرة طيلة تلك المدة إلا أنه لم يقتل من المسلمينإلا عدد قليل وهم: سعد بن معاذ سيد الأوس وحامل لوائهم يوم الخندق استطاع حبان بن العرقة من المشركين أن يرمي سهمًا أصابه في أكحله(117)، وقال: خذها وأنا بن العرقة، وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللهم إن كنت أبقيتمن حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة(118) ، ، وأنس بن أوسبن عتيك رماه خالد بن الوليد بسهم فقتله ولم يشهد بدراً"(119) ، وعبد الله بن سهل الأشهلي (120) وثعلبة بن عنمة بن عدي بن نابي، وطفيل بن النعمان بن خنساء بن سنان (121) ،
وكعب بن زيد النجاري (122)و سليط وسفيان بن عوف الأسلمي، وروي أن رسول الله ص بعث سليطا وسفيان بن عوف الأسلمي طليعة يوم الأحزاب

---

117) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة إذا قطع لم يرقأ الدم.
118) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (1389/3) رقم 1769.
119) أسد الغابة ، 122/1، والاستيعاب ، 198/1.
120) أسد الغابة ، 171/3، والاستيعاب ، 56/3.
121) أسد الغابة ، 56/3 ، البداية والنهاية ، 116/4، والسيرة النبوية ، 222/3، الطبقات الكبرى ، 573/3، السيرة الحلبية ، 648/2.
122) الطبقات الكبرى ، 70/2، البداية والنهاية ، 116/4، أسد الغابة ، 241/4.

فخرجا حتى إذا كانا بالبيداء إلتفت عليهم خيل لأبي سفيان فقاتلا حتى قتلا فأُتِيَ بهما رسول الله ص فدفنا في قبر واحداً فهما الشهيدان القرينان(123) وسنان بن صيفي الخزرجي (124).

و رغم كثرة المناوشات التي قامت بها جموع الأحزاب ورغم كثرتهم ومع ذلك فقد قتل من المشركين ثلاثة فقط (125) وقيل أربعة(126) وهم: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار. أصابه سهم فمات منه بمكة(127) ونوفل بن عبد الله بن المغيرة ، اقتحم الخندق بفرسه فتورط فيه فقتل هناك(128) ، عمرو بن عَبْدُ ود العامري ، قتله علي مبارزة (129) وحسل بن عمرو(130).

هؤلاء الذين قتلوا من المشركين رغم كثرتهم ويمكن أن نرجع سبب قلة القتلى من الجانبين إلى أن: "وجود الخندق كان له سبب مباشر بعد الله. ذلكلأن المشركين تخوفوا من هذه المكيدة ولم يقتل إلا من اقتحم أو اقترب كما فعل نوفل وعمرو بن ود. والخندق في الحقيقة نصر من الله حيث ألهمهم الله إلى حفره

---

123) مجمع الزوائد ، 135/6.
124) الاشتقاق ،ص 465. وانظر ترجمته في الطبقات الكبرى ، 572/3، أسد الغابة ، 359/2.
125) هذا ما اتفق على إيراده المؤرخون وأهل المغازي.
126) ذكر الرابع وانفرد به ابن هشام. السيرة النبوية ، 253/3.
127) كذلك انفرد ابن هشام بهذه التسمية والبقية يقولون أن اسمه (منبه).
128) البداية والنهاية ، 116/4.
129) تاريخ الخميس ، 487/1 ، السيرة النبوية ، 253/2، 3 ،الطبقات الكبرى ، 68/2- 70 ، تاريخ الأمم والملوك ، 49/3، الكامل ، 124/2، البداية والنهاية ، 116/4.
130) السيرة النبوية ، 253/2.

وأعانهم على سرعة إنجازه فكان حاجزاً حصيناً ولكي يبين الله سبحانه لأعداء المسلمين من منافقين وكفار أن النصر بيد الله وليست بالكثرة وأنه متى كان الله سبحانه مع فئة ولو قليلة تكون لها الغلبة في النهاية ذلك لأن هذه الفئة القليلة تقاتل عن عقيدة سامية ومبدأ عظيم ألا وهو الإسلام(131).ولما طال الحصار أخذ اليهود قبحهم الله يرسلون إمدادات للأحزاب ، وذكر صاحب السيرة الحلبية:أن دورية مسلحة من الأنصار خرج رجالها ليدفنوا ميتاً لهم فصادفوا قافلة من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً. فأخذها المسلمون وخفف الله بها عليهم من ضائقة المجاعة التي كانوا يعانونها(132).وهذا جعل الهزائم تتوالى على الأحزاب إضافة إلي قتل أربعة من فرسان المشركين وصناديدهم ، مما زاد من حقدهم ، وزادوا من نشاط خيلهم فكانت الخيول تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح فتخلفها أعداد طول النهار وأصحابها يطمعون في أخذ المسلمين على حين غرة وذلك لأن خالد بن الوليد كان في هذه الغزوة قائداً للفرسان كما كان في غزوة أحد وهو يطمع كما فعل في أحد أن يصيب غرة من المسلمين ولكن هيهات "لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين"(133).قال ابن سعد: فكان المشركون يتناوبون بينهم فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً

131) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص450

132) السيرة الحلبية ، 107/2.

133) رواه البخاري في كتاب الأدب 83، مسلم في كتاب الزهد 63، وأبو داود في الأدب 29، وابن ماجة في الفتن 13، والدارمي في الرقاق 65، وأحمد 115/2، 379.

ويغدو خالد بن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً ويغدو هبيرة بن أبي وهب الذي نجا من الكرة الأولى يوماً ويغدو ضرار بن الخطاب الفهري يوماً فلا يزالون يجيلون خيلهم يتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله ص....وبعد قتل أصحابهم اتعدوا أن يغدوا من الغد فباتوا يعبئون أصحابهم وفرقوا كتائبهم ونحوا(134) إلى رسول الله ص كتيبة غليظة فيها خالد بن الوليد فقاتلوهم يومهم ذلك إلى هوي من الليل ما يقدرون أن يزولوامن مواضعهم ولا صلى رسول الله ص ولا أصحابه ظهراً ولا عصراً ولا مغرباًولا عشاء حتى كشفهم الله فرجعوا متفرقين إلى منازلهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله ص وأقام أسيد بن الحضير على الخندق في مائتين من المسلمين وكر خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة ومع المشركين وحشي فزرق(135) الطفيلَ بن النعمان من بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشفوا وصار رسول الله ص إلى قبته فأمر بلالاً فأذن وأقام الظهر فصلى ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهممن الصلوات وقال: "شغلونا عن الصلاة الوسطى يعني العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً"(136) .

134) عند ابن سيد الناس جهزوا.
135) زرقه رماه والمزراق رمح قصير ،القاموس ، 240/3.
136) الطبقات الكبرى ، 68/2- 69.

وفي ظل هذا الموقف العصيب ظهرت حنكته ص وحسن سياسته حيث اختار قبيلة غطفان لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم ص أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصولعلى المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول ص الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًا وعقائديًا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ص(137)، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي ص وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي ص واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله ص في مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله ص يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

137) محمد أحمد باشميل ، غزوة الأحزاب، ص201.

عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة(138)، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ص قال لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله ص أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر(139)فجاءوا وقد أحضر رسول الله ص أصحابه وأحضر الصحيفة والدواة وأحضر عثمان بن عفان فأعطاه الصحيفة

138) محمد أحمد باشميل ، غزوة الأحزاب، ص201-202

139) المغازي للواقدي ، 477/2

وهو يريدأن يكتب الصلح بينهم وعباد بن بشر قائم على رأس رسول الله ص مقنع في الحديد. فأقبل أسيد بن حضير إلى رسول الله ص ولا يدري بما كان من الكلام فلما جاء إلى رسول الله ص وجاء عيينة مادا رجليه بين يدي رسول الله ص وعلم ما يريدون فقال يا عين الهجرس (140)

اقبض رجليك أتمد رجليك بين يدي رسول الله ص؟ ومعه الرمح. والله لولا رسول الله ص لأنفذت خصيتيك بالرمح ثم أقبل على رسول الله ص فقال يا رسول الله ص إن كان أمرا من السماء فامض له وإن كان غير ذلك فوالله لا نعطيهم إلا السيف متى طمعوا بهذا منا ؟ فأسكت رسول الله ص ودعا سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما في ذلك وهو متكئ عليهما، والقوم جلوس فتكلم بكلام يخفيه وأخبرهما بما قد أراد من الصلح. فقالا: إن كان هذا أمرا من السماء فامض له وإن كان أمرا لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فامض لما كان لك فيه هوى فسمعا وطاعة وإن كان إنما هو الرأي فما لهم عندنا إلا السيف. وأخذ سعد بن معاذ الكتاب فقال رسول الله ص: "إني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة فقلت أرضيهم ولا أقاتلهم".

140) الهجرس: ولد الثعلب، والهجرس أيضا القرد. أنظر : النهاية، 4/ 240

فقالا: يا رسول الله ص إن كانوا ليأكلون العلهز (141) في الجاهلية من الجهد ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا تمرة إلا بشرى أو قرى فحين أتانا الله تعالى بك، وأكرمنا بك، وهدانا بك نعطي الدنيةلا نعطيهم أبدا إلا السيف

فقال رسول الله ص "شق الكتاب". فتفل سعد فيه ثم شقه وقال: بيننا السيف فقام عيينة وهو يقول: أما والله للتي تركتم خير لكم من الخطة التي أخذتم وما لكم بالقوم طاقة.

فقال عباد بن بشر يا عيينة أبالسيف تخوفنا ؟ ستعلم أينا أجزع وإلا فوالله لقد كنت أنت وقومك تأكلون العلهز والرمة (142) من الجهد فتأتون هاهنا ما تطمعون بهذا منا إلا قرىأو شرى، ونحن لا نعبد شيئا، فلما هدانا الله وأيدنا بمحمد ص سألتمونا هذه الخطة أما والله لولا مكان رسول الله ص ما وصلتم إلى قومكم. فقال النبي ص: "ارجعوا، بيننا السيف!" رافعا صوته. فرجع عيينة والحارث وهما يقولان والله ما نرى أن ندرك منهم شيئا، ولقد أنهجت للقوم بصائرهم والله ما حضرت إلا كرها لقوم غلبوني، وما مقامنا بشيء مع أن قريشا إن علمت بما عرضنا على محمد عرفت أنا قد خذلناها ولم ننصرها.

---

141) العلهز :هو شيء يتخذونه في سنى المجاعة، يخلطون الدم بأوبار الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه، وقيل كانوا يخلطون فيه القردان. أنظر ، النهاية، 3، / 124

142) الرمة، بالكسر: العظام البالية. أنظر: القاموس المحيط، 4/ 122

قال عيينة هو والله ذلك قال الحارث أما إنا لم نصب بتعرضنا لنصر قريش على محمد والله لئن ظهرت قريش على محمد ليكونن الأمر فيها دون سائر العرب مع أني أرى أمر محمد أمرا ظاهرا. والله لقد كان أحبار يهود خيبر وإنهم يحدثون أنهم يجدون في كتبهم أنه يبعث نبي من الحرم على صفته.

قال عيينة إنا والله ما جئنا ننصر قريشا، ولو استنصرنا قريشا ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها. ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكر مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة مع أنا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما هاهنا.

قال الحارث قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف والله لتقاتلن عن هذا السعف ما بقي منها رجل مقيم وقد أجدب الجناب وهلك الخف والكراع. قال عيينة لا شيء. فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا: ما وراءكم ؟ قالوا: لم يتم الأمر رأينا قوما على بصيرة وبذل أنفسهم دون صاحبهم وقد هلكنا وهلكت قريش، وقريش تنصرف ولا تكلم محمدا وإنما يقع حر محمد ببني قريظة إذا ولينا جثم عليهم فحصرهم جمعة حتى يعطوا بأيديهم. قال الحارث بعدا وسحقا محمد أحب إلينا من اليهود(143).

---

143) مغازي الواقدي ، 2 /480

واستخدام النبي ص سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ص أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ص ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله ص، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ص: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة»(144).

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال يا بني قريظة قد عرفتم وُدِّي إياكم وخاصةً ما بيني وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم إن قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره. وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره. فليسوا كأنتم. فإن رأوا نهزة(145) أصابوها؛

144) البداية والنهاية ، 113/4 ، وانظر: فتح الباري ، 157/6- 158 حيث قال الحافظ ذكر الواقدي أن أول ما قال النبي ص الحرب خدعه في غزوة الخندق. وانظر: فتح الباري ، 618/6 كتاب المناقب، 283/12.

145) النهزة اختلاس الشيء بسرعة والأصل - فرصة.

وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه. فقالوا له لقد أشرت بالرأي.

قال ابن إسحاق: "ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وأنه قد بلغني أمرقد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عني، فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟

فأرسل إليهم أن نعم فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً. ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني، فقالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال فاكتموا عني قالوا نفعلفما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم"(146).

146) السيرة النبوية ، 229/3- 230.

أما الواقدي فقد ذكر القصة باستفاضة وهذا كلامه:

قال: " قال نعيم بن مسعود: "كانت بنو قريظة أهل شرف وأموال، وكنا قوماً عرباً لا نخل لنا ولا كرم، وإنما نحن أهل شاة وبعير؛ فكنت أقدم على كعب بن أسد فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملونني تمراً على ركابي ما كانت. فأرجع إلى أهلي، فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله ص سرت مع قومي وأنا على ديني".وقد كان رسول الله ص عارفاً فأقامت الأحزاب ما أقامت حتى أجدب الجناب وهلك الخف والكراع (147) وقذف الله عز وجل في قلبي الإسلام وكتمت قومي إسلامي، فأخرج حتى آتي رسول الله ص بين المغرب والعشاء، وأجده يصلي فلما رآني جلس ثم قال ما جاء بك يا نعيم؟

قلت: "إني جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرني بما شئت يا رسول الله ص فوالله لا تأمرني بأمرإلا مضيت له، قومي لا يعلمون إسلامي ولا غيرهم". قال: "ما استطعت أن تخذل الناس فخذل" ؛ قال: "قلت أفعل ولكن يا رسول الله ص أقول؟ فاذن لي، قال: "قل ما بدا لك فأنت في حلّ" ، قال فذهبت حتى جئت بني قريظة فلما رأوني رحبوا وأكرموني وحيوا وعرضوا علي الطعام والشراب، فقلت إني لم آت لشيء من هذا وإنما جئتكم نصباً بأمركم وتخوفاً عليكم لأشير عليكم برأي، وقد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم

147) بالخف الإبل وفي بعض النسخ الحافر وهو الخيل.

فقالوا قد عرفنا ذلك وأنت عندنا على ما تحب من الصدق والبر، قال: "فاكتموا عني قالوا نفعل قال إن أمر هذا الرجل بلاء يعني النبي ص صنع ما قد رأيتم ببني قيقناع وبني النضير وأجلاهم عن بلادهم بعد قبض الأموال".

وكان ابن أبي الحقيق قد سار فينا(148) فاجتمعنا معه لنصركم وأرى الأمر قد تطاول كما ترون وأنكم والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة أما قريش وغطفان فهم قوم جاءوا سيارة حتى نزلوا حيث رأيتم فإن وجدوا فرصة انتهزوها.

وإن كانت الحرب أو أصابهم ما يكرهون انشمروا إلى بلادهم وأنتملا تقدرون على ذلك البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وقد غلظ عليهم جانب محمد أجلبوا عليه أمس إلى الليل(149) فقتل رأسهم عمرو بن عبد وهربوا منه مجرحين وهم لا غناء بهم عنكم لما يعرفون عندكم(150)، فلا تقاتلوا مع قريش وغطفان حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، تستوثقون به منهم ألا يناجزوا محمداً، قالوا أشرت بالرأي علينا والنصح، ودعوا له وتشكروا وقالوا نحن فاعلون قال ولكن اكتموا عني قالوا نعم نفعل.

ثم خرج إلى أبي سفيان بن حرب في رجال من قريش فقال: "يا أبا سفيان قد جئتك بنصيحة فاكتم عني قال أفعل. قال تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد،

---

148) يريد الذي ذهب محرضاً ضمن الوفد اليهودي.

149) اجلبوا: توعدوا بشر وأجلب على فرسه صاح. القاموس ، 47/1.

150) يشير إلى أنهم أهل حلقة وسلاح.

وأرادوا إصلاحه. ومراجعته أرسلوا إليه وأنا عندهم أنّا سنأخذ من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نسلمهم إليك تضرب أعناقهم وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم يعنون بني النضير – ونكون معك على قريش حتى نردهم عنك، فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً، واحذروهم على أشرافكم، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً قالوا لا نذكره، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إني رجل منكم فاكتموا عني واعلموا أن قريظة بعثوا إلى محمد وقال لهم مثل ما قال لقريش فاحذروا أن تدفعوا إليهم أحداً من رجالكم، وكان رجلاً منهم فصدقوه(151).وأرسلت اليهود عزال بن سمو أل إلى أبي سفيان بن حرب وأشراف قريش إن ثواءكم (152) قد طال، ولم تصنعوا شيئاً، وليس الذي تصنعون برأي، إنكملو وعدتمونا يوماً تزحفون فيه إلى محمد فتأتون من وجه وتأتي غطفان من وجه ونخرج نحن من وجه آخر لم يفلت من بعضنا.

151) مغازي الواقدي ، 2/481- 482.
152) طال ثواءنا: أي طال مقامنا.

ولكن لا نخرج معكم حتى ترسلوا إلينا بِرِهَانٍ (153) من أشرافكم يكونون عندنا فإنا نخاف إن مستكم الحرب وأصابكم ما تكرهون شمرتم وتركتمونا في عقر دارنا وقد نابذنا(154) محمداً بالعداوة، فانصرف الرسول ص إلى بني قريظة، ولم يرجعوا إليهم شيئاً، وقال أبو سفيان هذا ما قال نعيم، فخرج نعيم إلى بني قريظة فقال: "يا معشر بني قريظة أنا عند أبي سفيان حتى جاء رسولكم إليه يطلب منه الرهائن فلم يرد عليه شيئاً فلما ولى قال لو طلبوا مني عناقاً(155) ما رهنتها، أنا أرهنهم سراة أصحابي يدفعونهم إلى محمد يقتلهم، فارتأوا آراءكم حتى تأخذوا الرهن فإنكم إن لم تقاتلوا محمداً" وانصرف أبو سفيان تكونوا على مواعدتكم الأولى. قالوا نرجو ذلك يا نعيم؟ قال نعم قال كعب بن أسد فإنا لا نقاتله والله لقد كنت لهذا كارهاً ولكن حيي رجل مشؤم".

قال الزبير بن باطا: "إنْ انكشفت قريش وغطفان عن محمد لم يقبل منا إلا السيف، قال نعيم لا تخش ذلك يا أبا عبد الرحمن. قال الزبير بلى والتوراة ولو أصابت اليهود رأيها، ولحِمَ الأمر، لتخرجن إلى محمد ولا يطلبون من قريش رهناً

153) برهان: بكسر المعجمة فما بعدها من الرهن.
154) نابذنا: نبذ العهد إذا نقضه وألقاه إلى من كان بينه وبينه. النهاية ، 7/5.
155) العناق: الأنثى من أولاد المعز.

فإن قريشاً لا تعطينا رهنا أبداً. وعلى أي وجه تعطينا قريش الرهن وعددهم أكثر من عددنا ومعهم كراع ولا كراع معنا وهم يقدرون على الهرب ونحن لا نقدر عليه؟ وهذه غطفان تطلب إلى محمد أن يعطيها بعض تمر الأوس وتنصرف فأبى محمد إلا السيف فهم ينصرفون بغير شيء"(156).

فلما كانت ليلة السبت كان مما صنع الله تعالى لنبيه أن قال أبو سفيان يا معشر قريش إن الجناب. قد أجدب، وهلك الكراع، والخف، وغدرت اليهود وكذبت وليس هذا بحين مقام فانصرفوا، قالت قريش فاعلم علم اليهود، واستيقن خبرهم، فبعثوا عكرمة بن أبي جهل حتى جاء بني قريظة عند غروب الشمس مساء ليلة السبت فقال: "يا معشر اليهود إنه قد طال المكث وجهد الخف والكراع وأجدب الجناب

وإنا لسنا بدار مقامه. اخرجوا إلى هذا الرجل حتى نناجزه بالغداة، قالوا غداً السبت لا نقاتل ولا نعمل فيه عملاً، وإنا مع ذلك لا نقاتل معكم إذا انقضى سبتنا حتى تعطونا رهاناً من رجالكم يكونون معنا لئلا تبرحواحتى نناجز محمداً. فإنا نخشى إن أصابتكم الحرب أن تشمروا إلى بلادكم وتدعونا وإياه في بلادنا ولا طاقة لنا به، معنا الذراري والنساء والأموال فرجع عكرمة إلى أبي سفيان فقالوا ما وراءك؟

156) مغازي الواقدي 482/2.

قال أحلف بالله أن الخبر الذي جاء به نعيم حق لقد غدر أعداء الله، وأرسلت غطفان إليهم مسعود بن رخيلة في رجال منهم بمثل رسالة أبي سفيان فأجابوهم بمثل جواب أبي سفيان".وقالت اليهود حيث رأوا ما رأوا منهم نحلف بالله إن الخبر الذي قال نعيم لحق، وعرفوا أن قريشاً لا تقيم فسُقِطَ في أيديهم. فكر أبو سفيان إليهم وقال: "إنا والله لا نفعل إن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا"، فقالت اليهود مثل قولهم الأول وجعلت اليهود تقول الخبرما قال نعيم وجعلت قريش وغطفان تقول الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء واختلف أمرهم، فكان نعيم يقول أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه وأنا أمين رسول الله ص على سره فكان صحيح الإسلام بعد(157).

حصول النزاع بين الأحزاب وانهزامهم

لقد اشتد الكرب على المسلمين بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا فما كان من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ص . وقالوا: يا رسول الله ص هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا (158).

157) مغازي الراقدي 482/2.
158) مسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (18/4).

وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ص على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم(159)، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ص، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم، وأنزل جنودًا من عنده سبحانه، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [سورة الأحزاب: الآية 9].

ويعني القرآن الكريم بالجنود الذين جاءوا لحرب المسلمين قريش، وغطفان وبني قريظة، أما الجنود الذي أشار القرآن إلى أن الله أرسلهم لإزعاج الأحزاب فقد ذكر كثير من أهل المغازي والتفاسير أنهم(الملائكة)،

ولم يثبت أنهم قاتلوا الأحزاب، ولكنهم أرسلوا للإزعاج والتضييق(160). لذلك روى البخاري / عن ابن عباس بعن النبي ص قال: "نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور" (161).

159) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (59/5) رقم 4114.
160) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، 278.
161) صحيح البخاري 47/5 ، صحيح مسلم 617/2 ، مسند الإمام أحمد 223/1، 324، 341، 355، 373.

وقد أخرج ابن سعد عن سعيد بن جبير قال: "لما كان يوم الخندق أتى جبريل عليه السلام ومعه الريح فقال حين أتى جبريل: "ألا أبشروا ثلاثاً"، فأرسل الله عليهم الريح فهتكت القباب، وكفأت القدور، ودفنت الرحال(162)، وقطعت الأوتاد، فانطلقوا لا يلوي أحد على أحد فأنزل الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً [سورة الأحزاب: الآية 9](163).وهكذا يتبين أن لله ـ جنوداً أقوياء وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ [سورة المدَّثر: الآية 31]،

فقد سلط الله سبحانه هذا النوع من جنده فزلزلت الأعداء، وأزعجهم هذا الوضع وخاصة بعد أن حصل ما حصل من التخذيل بينهم وبين حلفائهم اليهود، وظن بعضهم ببعض سوءاً. ووصل الخلاف والتنافربين الفريقين إلى درجة أصبح الحلف العسكري المعقود

162) الرحال: جمع رحل وهو مركب يوضع على ظهر البعير. القاموس 383/3.
163) الطبقات الكبرى ، 71/2.

بينهما في حكم المنتهي وصار كل فريق يحمل الآخر مسؤولية انفصام عرى هذا الحلف. عندئذ سلط الله عليهم القوة الإلهية. وقد فكرت عندئذ القيادة المشتركة للأحزاب في إنهاء الحصار المضروب على المدينة، والرجوع بجيوشها كلٌ إلى بلاده، وترك اليهود وشأنهم ليلقوا مصيرهم الرهيب، وفي النهاية وعندما أذن الله وأراد نصر أوليائه هبت على المنطقة التي يعسكر فيها الأحزاب رياح قوية كانت لقوتها تقتلع الخيام وتهد الأبنية وتكفأ القدور، ولا تترك ناراً تشتعل مما جعل أبو سفيان يقول: "يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام فقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل"(164).

وقد بلغ من خوف القوم عندما توالت عليهم عوامل الهزيمة أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم – ليتعرف كل منكم أخاه وليمسك بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو.

وقد حل عقال بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، فقال له صفوان بن أمية" إنك رئيس القوم فلا تتركهم وتمضي"، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل وترك خالد بن الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأزاح الله عن المسلمين تلك الغمة، ولولا لطف الله وعنايته بهذا الدين منّة منه وفضلاً لساءت الحال وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة(165).

164) الاكتفاء ، 175/2.

165) نور اليقين ، 155.

ولما كان رسول الله ص يتابع أمر الأحزاب، فإنه أراد أن يتحريعما حدث عن قرب ، ولما كانت هذه المهمة في غاية الخطورة والمغامرة فقد اختار لها من يناسبها ووقع اختياره علي حذيفة بن اليمان ت ، فقدقام تبدور استكشاف خطير، ودخل في وسط الصفوف صفوف الأعداء رغم احتراسهم وحراسهم المليئة قلوبهم بالحقد على المسلمين وخاصة بعد أن قتل بعض صناديدهم ورغم الظروف الخطيرة التي كانت تحيط به ت فقد ذهب في رعاية الله وحفظه ودعا له الرسول ص بالحفظ من بين يديه ومن خلفه واستجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، ودخل حذيفة مع الأعداء وتوغل في صفوفهم حتى أشرف على القائد أبي سفيان، وحفظه الله ورجع إلى رسول الله ص بأخبارهم ورحيلهم

روى عن حذيفة قال: " لقد رأيتنا مع رسول الله ص ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقر(166)، فقال رسول الله ص: "ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟" فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال:"ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

166) القَر: هو البرد الشديد.

فسكتنا فلم يجبه منا أحد فقال: "قم يا حذيفة فاتنا بخبر القوم". فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: "اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ" (167)، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يُصْلَيّ ظهره(168) بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس(169) فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ص "ولا تذعرهم عليّ" ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت(170)،

فألبسني رسول الله ص من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائماً حتى أصبحت(171) فلما أصبحت قال:"قم يا نومان" (172)(173).

وفي رواية البزار "قال حذيفة: "إن الناس تفرقوا عن رسول الله ص ليلة الأحزاب فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فأتاني رسول الله ص وأنا جاثم"(174) من النوم فقال يا ابن اليمان: "قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب فانظر إلى حالهم".قلت: "يا رسول الله ص

---

167) ولا تذعرهم على: أي لا تفزعهم على ولا تحركهم علي وقيل معناه لا تنفرهم والمراد لا تحركهم عليك فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي لأنك رسولي وصاحبي (من صحيح مسلم) 1414/3 هامش الصفحة.

168) يصلى ظهره: يدفئه.

169) كبد القوس: مقبضها وكبد كل شيء وسطه كما في القاموس 332/7.

170) قررت: أي بردت.

171) أصبحت: أي طلع الفجر.

172) نومان: كثير النوم.

173) صحيح مسلم 1414/3- 1415.

174) جاثم: جثم لزم مكانه فلم يبرح. القاموس 87/4 وعند البيهقي جاثي.

والذي بعثك بالحق ما قمت إليك إلا حياءَمن البرد. قال: "انطلق يا ابن اليمان فلا بأس عليك من برد ولا حر حتى ترجع إليّ". قال فانطلقت حتى آتيت عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله وقد تفرق الأحزاب عنه، فجئت حتى أجلس فيهم فحس أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه قال فضربت بيدي على الذي عن يميني فأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده فلبثت فيهم هنيهة

ثم قمت فأتيت النبي ص وهو قائم يصلي فأومئ إلي أن ادنو فدنوت حتى أرسل علي من الثوب الذي كان عليه ليدفئني، فلما فرغ من صلاته قال: "يا ابن اليمان اقعد ما خبر القوم؟" قلت يا رسول الله: "تفرق الناس عن أبي سفيان فلم يبق إلا في عصبة يوقد النار وقد صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون"أ:هـ(175).

175) رواه البزار في مسنده ، 347/7، و الحاكم في مستدركه ،33/3 ح4325 ، و البيهقي، دلائل النبوة 454/3.

وهكذا نفذ حذيفة بن اليمان ت ما أمره به النبي ص، وهي مهمة شاقة ولكن دعاء النبي ص له كان من الأسباب التي جعلته ينجح في تلك المهمة رغم ما صادف من مآزق وأهم مأزق واجهه عندما قال أبو سفيان لينظر امرؤ من جليسه، وهو تحفظ من أبي سفيان خوفاً من أن يكون داخل المعسكر أحد يتجسس لحساب المسلمين(176)

ولكنه لذكائه -ت- تخلص من هذا المأزق حيث سارع إلى الرجل الذي بجانبه وبدأه بالسؤال قائلاً من أنت؟. وبهذا العمل تمكن حذيفة من الخروج من المأزق الذي وقع فيه والذي كاد أن يوقعه في قبضة المشركين لو انكشف أمره(177)

ثم سلط الله عليهم تلك الريح الهوجاء وأرسل عليهم ملائكته فزلزلتهم وجعلتهم يرتحلون، وفرق الله جمعهم وخذلهم وكفى الله المؤمنين شرهم:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحج: الآية 40].

حقيقة أنها نعمة، وأيما نعمة ! حيث انقشعت الغمة، وخلص الله المسلمين من براثن المحنة، وقطف المؤمنون الصادقون ثمار صدقهم، وصبرهم، وثباتهم مع نبيهم الحبيب صفي تلك الليالي الرهيبة، المرعبة، التي زاغت فيها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر،

176) غزوة الأحزاب لباشميل ، 265.
177) السيرة الحلبية 653/2.

فقد أخذت جيوش الأحزاب في فك الحصار عن المدينة. وأخذت كتائبهم تولي الأدبار تجر أذيال الخيبة والخسران لم تجن من غزوها الكبير هذا سوى التعب والنصب(178)

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحج: الآية 40].

لقد كفى الله المؤمنين القتال، ونصر عبده، وأعز جنده؛ ولهذا كان رسول الله ص يقول "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده" (179).

وهكذا حصل حيث أن المشركين لم يغزوا المسلمين بعدها بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، فعن سليمان بن صرد قال: "قال النبي ص يوم الأحزاب "نغزوهم ولا يغزوننا" (180).قال ابن إسحاق: "لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسولالله صفيما بلغنا "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم".

---

178) محمد باشميل ، غزوة الأحزاب ، 267.

179) صحيح البخاري 49/5 كتاب الجهاد، صحيح مسلم 980/2 كتاب الحج باب ما يقوله إذا قفل من سفر الحج وغيره، سنن أبي داود 214/3 كتاب الجهاد، سنن النسائي القسامة 34 ، سنن ابن ماجة 878/2 كتاب الديات، موطأ مالك 243 ، مسند الإمام أحمد 444/1، 5/2، 10، 11، 15، 21، 38، 63، تفسير القرآن العظيم 477/3.

180) صحيح البخاري 48/5 ، مسند الإمام أحمد 262/4.

فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان رسول الله ص هو يغزوهم بعد ذلك، حتى فتح الله تعالى مكة كما رواه الطبراني(181).وذلك يعكس التغير الجذري في سياسة الدولة الإسلامية من إتباع سياسة الدفاع عن المدينة، إلى مرحلة الهجوم والتهديد، وذلك يشير بوضوح إلى أن مناطق الصراع قد انتقلت في أعقاب هذه الغزوة إلى مناطق أخرى مثل مكة وما حولها وتبوك، وغيرهما بعيدا عن المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية.

وإخبار الرسول ص بأنهم – أي الأحزاب – أو كفار قريش لا يغزوا المسلمين بعد هذه الغزوة علم من أعلام نبوته صحيث حصل ذلك حتى فتح مكة تلك التي أخرجه كفارها في بداية ظهور الإسلام، وخرج منها خائفاً يترقب، ولكنه بقوة الله وتأييده رجع إليها فاتحاً رافعاً راية التوحيد، حامداً ربه شاكراً له.ولقد تحدث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ورد الأمر كله لله سبحانه، وقد سجل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب وقريظة، والقرآن كعهدنا به يسجل الخالدات التي تسع الزمان والمكان، فالمسلمون معرضون دائمًا لأن يغزوا في عقر دارهموفي عواصم بلدانهم، ومعرضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعًا، فأن يسجل القرآن حادثتي الأحزاب وقريظة فذلك من سمة التكرار على مدى العصور؛ لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة التي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص ،

181) صحيح البخاري 48/5 ، تفسير القرآن العظيم 477/3، المعجم الكبير 115/7 ، مجمع الزوائد 139/6.

فلقد ذكر الله المؤمنين بنعمه عليهم، كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [سورة الأحزاب: الآية 9]. وصور ما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) [سورة الأحزاب: الآية 10]. وكشف عن نوايا المنافقين السيئة، وأخلاقهم الذميمة، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم الباطلة، ونقضهم للعهود، فقال تعالى: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) [سورة الأحزاب: الآية 12] وحض المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسي برسول الله ص في أقواله وأفعاله وجهاده وكل أحواله استجابة لقوله تعالى: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا [سورة الأحزاب: الآية 21]. ومدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق ووفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى: مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا [سورة الأحزاب: الآية 23]. وبين سبحانه أن من سننه التي لا تتخلف، هي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم، قال تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا [سورة الأحزاب: الآية 25].

وأوضح سبحانه امتنانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يذكر، حيث ألقى سبحانه الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله. قال تعالى: وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (27) [سورة الأحزاب: الآية 26،27] (182)

الأحكام والفوائد والعبر المستنبطة من هذه الغزوة

الشورى:

الشورى في الإسلام مبدأ من مبادئ نظام الحكم الإسلامي، وعليه المعول عندما لا يوجد دليل من الكتاب أو السنة يحتم الأخذ بشيء معين. وقد شاور الرسول ص أصحابه كثيراً، كما فعل ذلك الخلفاء الراشدون بعده ، وفي غزوة الخندق حصلت المشاورة من النبي ص لأصحابه حول خطة الدفاع التي يتخذونها حيال الجموع الزاحف صوب المدينة، التي جاءت من بلادها عاقدة النية استئصال هذا الدين الحنيف الذي أصبح يهدد كيانهم ويبدد أصنامهم. وقد أشار عليه سلمان الفارسي ت بحفر الخندق

182) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ، (490/2، 491.)

وذلك لاقتناعه بأنها خطة عظيمة جيدة في هذا الظرف الخطير؛ والوقت القصير؛ ولأنها قد نفذت في بلاد فارس ونفعت.واقتنع رسول الله ص بهذا الرأي السديد، وسارع إلى تنفيذه، وسارع أصحابه ي في هذا العمل العظيم، وأنجزوه في مدة وجيزة حيث لا تستطيع الآلات الحديثة في هذا العصر المتطور مادياً أن تفعل فعلهم إذا أخذنا في الحسبان أنهم حفروا من طرف الحرة الغربية(183) الشرقي إلى طرف الحرة الشرقية(184) الغربي. علماً بأن الحفر واسع وعميق بحيث لم تستطع الخيل اقتحامه مما يدل دلالة واضحة على عظمه واتساعه، وما ذلك إلا بقدرة الله وقوته وتوفيقهلرسوله صولأصحابه الكرام

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحج: الآية 40].

183) الحرة الغربية وتسمى – حرة الوبرة-.
184) وتسمى حرة واقم لكنهم بدأوا من طرف حرة بني حارثة.

مشروعية جعل الإمام من ينوب عنه أثناء غيابه في قتال أو غيره.

وهذا مبدأ إسلامي مشروع شرعه النبي ص في عهده فالاقتداء به في ذلك مشروع. وقد كان صفي كل غزوة، وفي كل سفر يعزم عليه يعين نائباً على المدينة يقوم بالصلاة بأهلها ممن تخلفوا عن القتال لعجز، أو إعالة ضعفاء، أو تمريض مرضى، وغير ذلك من رعاية شئون أهل المدينة. وفي هذه الغزوة عين صابن أم مكتوم (185).

التواضع في الإسلام:

مبدأ شرعي من مبادئ هذا الدين الحنيف وخلق كريم، ولقد وقف النبي ص يوم عرفة في حجته التي تسمى حجة الوداع وقال: "يأيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى. أبلغت..." (186).

---

185) تهذيب التهذيب 34/8، أسد الغابة 103/4.

186) مسند الإمام أحمد 411/5 وقد جاء في صحيح مسلم 2199/4 أن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. الحديث.

الحديث من هذا المنطلق يتبين أن التواضع من الرئيس لمرؤسيه؛ ومن الكبير للصغير بل التواضع من كل أحد مما دعا إليه الإسلام وقد فعل ذلك صوطبق بنفسه هذا المبدأ العظيم.حيث باشر بنفسه في هذه الغزوة حفر الخندق، ونقل الترابوقد روى البراء بن عازب ت أنه صفعل ذلك حتى اغبر بطنه.

وما ذلك إلا لمعرفته بالله، وتواضعه لمن شرح صدره، ووضع وزره ورفع ذكره حيث لا يذكر الله إلا ويذكر ص. وتواضعه يتجلى دائماً بين أصحابه سواءفي الحرب أو في السلم وسنته مليئة بمثل ذلك.

المبارزة:

وهي ملاقاة الند(187) من المشركين أمام الصفوف واحداً لواحد. وقد حصل في هذه الغزوة المباركة لقاء هام بين علي توبين أعتى أعداء الله عمرو بن عبد ود حتى إن المؤرخين أثبتوا جميعاً بأنه فارس قريش وأحد شجعانها المبرزين.

187) الند: بالكسر المثل وبالفتح الطيب. القاموس 341/1.

بيع جيفة الكافر جوازها وعدمه:

وقد جاء في كتب الحديث ما يمنع ذلك فقد عنون البخاري بقوله: باب (طرح جيف المشركين في البئر ولا يؤخذ لهم ثمن) وفي ذلك دليل على أنه لا يجوز بيع جيفة المشرك قال المباركفوري: وإنما لا يجوز بيعها وأخذ الثمن فيها لأنها ميتة لا يجوز تملكها ولا أخذ عوض عنها وقد حرم الشارع ثمنها وثمن الأصنام(188).لا يعدل عن الوضوء إلى التيمم مع وجود الماء:أي أن الوضوء قد أوجبه الله ـ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [سورة المائدة: الآية 6]

188) تحفة الأحوذي 376/5.

والرسول ص لم يترك الوضوء حتى في أثناء الحروب ذلك لأنه لما كان في هذه الغزوة وفاتته صلاته العصر كما مر في الأحاديث الصحيحة وفي بعضها أنه فاتته الظهر والعصر والمغرب والعشاء.عمد صعندئذ إلى بطحان(189) ليتوضأ، وترك التيمم مع أنه في وقت حرب وأوضاع حرجة؛ ولأنه هو المشرع ص؛ ولوجود الماء قريباً منه لم يترك الوضوء لما فيه من الأجر العظيم لذلك روى البخاري حيث قال في حديث تقدم وشاهدنا منه هو. قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ص ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب قال النبي ص والله: "ما صليتها" فنزلنا مع النبي ص بطحان فتوضأنا لها.(الحديث)(190).

الخديعة في الحرب:

قال الحافظ: "وأصل الخداع إظهار أمر وإضمار خلافه"(191).وقد روي البخاري /عن أبي هريرة أن النبي ص(سمى الحرب خدعة)(192).واتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن الخداعإلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل"(193).وقد فعل ذلك نعيم بن مسعود تفي الخندق

189) أحد أودية المدينة المشهورة.
190) صحيح البخاري 47/5.
191) انظرفتح الباري 232/1.
192) صحيح البخاري 24/4 كتاب الجهاد.
193) صحيح مسلم 1362/3 كتاب الجهاد.

حيث أنه كان قد أسلم ولم يعلم به قومه فذهب إلى النبي ص وأخبره بإسلامه وأن قومه لا يعلمون بذلك.وأراد مساعدة المسلمين فقال له النبي ص إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فذهب لتوه إلى بني قريظة فقريش فغطفان وخذلهم الله وفرق جمعهم وشتت شملهم وكان نعيم سبباً هاماً في ذلك.

مشروعية إرسال العيون لأخذ أخبار الأعداء:

من هذا المنطلق فقد بعث النبي ص حذيفة بن اليمان تليلة الأحزاب ليأتيه بأخبار تلك الجموع التي حاولت جاهدة في حرب المسلمين وإيذائهم.

وقد قام حذيفة تبالمهمة خير قيام، حيث ذهب إليهم، وجلس بينهم وسمع ما يدور في معسكرهم، وقد كان على مسافة قريبة من القائد أبي سفيان وأراد أن يرميه فتذكر تحذير النبي ص له من ذلك "ولا تذعرهم عليّ(194)". فعادتيحمل أخباراً سارة وبشرى هامة هي رحيلهم، وانكشافهم عن المدينة التي ضاقت بهم ذرعاً

194) صحيح مسلم 1414/3-1415.

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً [سورة الأحزاب: الآية 25].من هنا يؤخذ جواز استعمال العيون، وإرسالها للتعرف على حالة الأعداء، ومدى استعدادهم، وكيفية تحركاتهم، حتى يكون المسلمون على علم بأعدائهم فيعد المسلمون لكل أمر عدته ولا ينبغي للمسلمين أن يغفلوا عن تحركات أعدائهم وما يكيدونه للإسلام وأهله.

استعراض الإمام للجيش قبل وقوع القتال

كما في حديث ابن عمر ب أن النبي ص عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه الحديث.

وقد وقع هذا من النبي ص في بدر وغيرها. وخروج صغيري السن لم يحدثإلا عند أولئك الذين يستشعرون قيمة الشهادة وتهون أنفسهم في سبيل الله طمعاً فيما عنده من مغفرة ورضوان. فعن ابن عمر قال: "عرضت على النبي ص يوم الخندق

فلم يجزني ولم يرني بلغت(195)". وفي الحديث أيضاً من العبر: حسن أخلاقه صومعرفته التامة بأحوال أصحابه واحترامه لهم ولأبنائهم رغم عظم الرسالة والأعباء التي حملها ولا غَرْوَ فقد قال ص: "ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا(196)" .

تعاون الجميع إذا هوجمت البلاد: وهناك أحاديث صحيحة تبين بوضوح مباشرته صالحفر ونقل التراب مع صحابته يمن ذلك ما روي البخاري ونصه:

عن البراء تقال: "كان النبي ص ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو إغبر بطنه(197). يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينـا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينـا إذا أرادوا فتنة أبينـا

195) فتح الباري 279/5.

196) رواه الترمذي في البر 15، وأحمد 257/1، 207/2.

197) والمعنى وارى التراب جلدة بطنه. الفتح، 399/7.

قال البراء: "ويرفع بها صوته أبينا أبينا" (198).

وهذا يدل بجلاء على مشاركته صلهم وعلى تواضعه وقد جاء عند أحمد عن أم سلمة - ل- قالت: "ما نسيت قوله يوم الخندق وهو يعاطيهم اللبن وقد أغبر شعر صدره وهو يقول: "اللهم إن الخير خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة" (199).

وفي هذا من العبر والدروس الشي الكثير منها :

القدوة في ذلك.

مباشرة الرسول ص الحفر بنفسه تحريضاً للمسلمين على العمل ليتأسوا به في ذلك، وحتى يبتعدوا عن الاتكالية وما يعقبها من تبعات.

فيهما إشارة إلى تحقير عيش الدنيا مهما بلغ لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17) [سورة الأعلى: الآية 17]،

---

198) فيه دليل على تواضعه ص، وانشراح صدره ومجاراته لأصحابه فيما هو حلال وطيب. وأنظر أيضاً:صحيح مسلم 1430/3 باب غزوة الأحزاب وهي الخندق.ومسند الإمام أحمد 285/282/4-303/302/300/291 ، وسنن الدارمي 221/2، والمسند 227/1 رقم (317).

199) مسند الإمام أحمد 289/6.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (4) [سورة الضُّحى: الآية 4]. ترديده صبعض الكلمات إجابة لأصحابه لما كانوا يقولونه أثناء الحفر وذلك مما ينشط حيث إن الإنسان إذا اشتغل في عمل جسماني شاق فالسكوت يشق عليه ويتعب بسرعة أكثر مما لو كان يتكلم حيث ينسيه الكلام التعب وهذا مجرب.

ملاطفته لأصحابه يوهو الموصوف بقول ربه تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ [سورة القلم: الآية 4] . حيث كان أصحابه يرتجزون أثناء الحفر برجل من المسلمين يقال له جعيل(200) فسماه الرسول ص عمرا فكانوا يقولون:

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوماً ظهرا

فإذا مروا بعمرو قال ص: عمراً وإذا مروا بظهر قال صظهرا.

من المعجزات التي حصلت في هذه الغزوة: الكدية والطعام المباركفيؤخذ منه:

طاعتهم لرسول الله ص ومحافظتهم على ذلك بدليل أنهم لما صادفوا تلك العقبة لم يتصرفوا حسب أرائهم بل رجعوا إلى النبي ص في ذلك ونتيجة لتلك الطاعة أعانهم الله عز وجل على تلك العقبات فأنجزوا ذلك العمل في وقت وجيز.

---

200) انظر أسد الغابة 290/1، وحلية الأولياء 353/1 رقم الترجمة (55).

حبهم الشديد لله، ولرسوله، وشفقتهم على بعضهم

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا [سورة الفتح: الآية 29].

ذلك أنه حينما رأى جابر ما يعانيه المصطفى ص من الجوع استأذن وعاد أدراجه إلى بيته ليجهز ما يستطيع عليه من طعام يدعو إليه رسول الله ص وثلة من أصحابه وفعلاً وجد عناقاً وصاعاً من شعير فذبح العناق، وطحنت زوجته صاع الشعير وجهزوه وعاد جابرتإلى رسول الله ص وجاء به ومن معه ضيفاً على تلك المأدبة المتواضعة.

تكثير الطعام الذي خجل(201) جابر من قلته فأكل الجميع وشبعوا وذلك بفضل الله على نبيه وإظهاره على يديه تلك المعجزات الباهرة. تواضعه عليه الصلاة والسلام لربه ولأصحابه حيث كان يغرف بنفسه اللحم ويكسر لهم الخبز حتى صدروا عنه.

201) الخجل: التحير والدهش من الاستحياء. مختار الصحاح ،ص 170.

الإهداء للجيران من الطعام سنة، وخاصة في أوقات المجاعة وقد أوصى رسول الله ص بذلك كما في حديث أبي ذر(202). حيث قال: إن خليلي أوصاني "إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف".

أهمية الصلاة:

وفيه حديث عمر ت: "يا رسول الله ص ما كدت أن أصلي العصرحتى كادت الشمس أن تغرب فقال رسول الله ص: « ما صليتها » قال :

فقمنا مع رسول الله ص إلى بطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها وصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب " (203). وفيه من الفوائد:

جواز اليمين من غير استحلاف إذا اقتضت مصلحة من زيادة طمأنينةأو نفي توهم.

استحباب قضاء الفوائت في جماعة وبه قال أكثر أهل العلم إلا الليث مع أنه أجاز صلاة الجمعة جماعة إذا فاتت.

استدل به على عدم مشروعية الأذان للفائتة.

202) صحيح مسلم ، 2025/4.
203) صحيح البخاري ، 92/5.

كثرة جند الله:

وفيه حديث ابن عباس ﷺ (نصرت بالصبا) وفيه: تفضيل بعض المخلوقات على بعض. إخبار المرء عن نفسه بما فضله الله به على سبيل التحدث بالنعمة، وبيان المنزلة لا على الفخر.

الإخبار عن الأمم الماضية وكيفية هلاكها.

الصبا هي أفضل الرياح التي تهب حيث أنها بفضل الله مبشرة بالخير ويستفيد منها الزرع بخلاف غيرها من الرياح فمثلاً الرياح الشمالية إذا هبت تميت المزروعات غالباً وهذا ما جربه الفلاحون.

أهمية الدعاء:

وفيه حديث عبد الله ابن أبي أوفى "اللهم منزل الكتاب" ومن الفوائد ما ذكره الحافظ: أن فيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث: إنزال الكتاب- إجراء السحاب- هزيمة الأحزاب. وفيه استحباب الدعاء عند اللقاء والاستنصار.ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم، وتعليمهم ما يحتاجون إليه، وسؤال الله تعالى بصفاته الحسنى وبنعمه السابغة

ومراعاة نشاط النفوس لفعل الطاعة والحث على سلوك الأدب وغير ذلك(204).وفيه حديث علي ت"لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ص... ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً" (الحديث)(205).قال الحافظ: "وفيه الدعاء عليهم بأن يملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، وليس فيه الدعاء عليهم بالهزيمة لكن يؤخذ من لفظ الزلزلة لأن في إحراق بيوتهم غاية التزلزل لنفوسهم".وقال: "وفيه جواز الدعاء على المشركين بمثل ذلك".كما تضمن كذلك دعاء صدر من النبي ص على من يستحقه وهو من مات مشركاً منهم. وفيه شدة حرص النبي ص على أداء الصلوات وخاصة صلاة العصر والتي قال صفي تاركها: "من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله"(206).

والذي يقارن بين أرقام المسلمين في أي معركة وبين أرقام المشركين يجد دائماً أن المشركين أكثر من المسلمين أضعافاً مضاعفة ومع ذلك فقد كان النصر حليف المسلمين رغم ذلك كله(207).وأخيراً يتبين من مجريات الأمور والأحداث في هذه الغزوة وغيرهامن الغزوات أن النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ووفرة السلاح وإنما يكون بقوة الروح المعنوية لدى الجيش.وقد كان الجيش الإسلامي في هذه المعارك يمثل العقيدة النقية والإيمان الصادق والفرح بالاستشهاد والرغبة في ثواب الله وجنته.

---

204) فتح الباري 157/6.

205) انظر الحديث في الصحيح 47/5.

206) فتح الباري 106/6، وقد أخرجه البخاري في المواقيت حديث رقم (553، 594) والنسائي في الصلاة.

207) إبراهيم بن محمد المدخلي ، مرويات غزوة الخندق ، ص 417 - 423

كما يمثل الفرحة من الانعتاق من الضلال والفرقة والفساد. بينما كان جيش المشركين يمثل فساد العقيدة وتفسخ الأخلاق، وتفكك الروابط الاجتماعية والانغماس في الملذات. والعصبية العمياء للتقاليد البالية والآباء الماضين والآلهة المزيفة انظر إلى ما كان يفعله الجيشان قبل بدء القتال.

فقد حرص المشركون قبل بدء معركة بدر مثلاً على أن يقيموا ثلاثة أيام يشربون فيها الخمور، وتغني لهم القيان، وتضرب لهم الدفوف، وتشعل عندهم النيران لتسمع العرب بما فعلوا فتهابهم. وكانوا يظنون ذلك سبيلاً إلى النصر، بينما كان المسلمون قبل بدء أي معركة يتجهون إلى الله بقلوبهم يسألونه النصر، ويرجونه الشهادة، ويشمون روائح الجنة ويخر الرسول ص ساجداً مبتهلاً يسأل ربه أن ينصر عباده المؤمنين وقد ابتهل كثيراً في هذه الغزوة ودعا الله حتى نصره وكانت النتيجة أن انتصر الأتقياء الخاشعون وانهزم اللاهون العابثون(208).

208) السيرة النبوية دروس وعبر، 2 / 114-115.

غزوة بني قريظة

كان نقض بني قريظة لوثيقة العهد التي أبرموها مع الرسول ص عند حصار قوات الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق وإصرارهم على خيانة اللّه ورسوله ص والمسلمين، وتعريضهم أمن وسلامة المسلمين ودولتهم للخطر، السبب في هذه الغزوة، فقد أمر اللّه ـ نبيه ص بقتالهم بعد انسحاب الأحزاب وانتهاء الحصار والخطر وعودته بالمسلمين من الخندق ووضعهم السلاح (209).

ففي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ص إلى المدينة، جاءه جبريل عند الظهر وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، وأمر رسول الله ص مؤذناً فأذن في الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يصَلِّينَّ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطي الراية على بن أبي طالب، وقدّمه إلى بني قريظة (210).

209) البخاري- الصحيح 3/ 306، مسلم- الصحيح 7/ 138.

210) الكلاعي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، 112/2

وخرج رسول الله ص في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها : بئر أنًّا. وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوامن فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق فقال بعضهم : لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم : لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين(211). والحاصل أن الذين صلوا العصر في الطريق جمعوا بين الأدلة وفهموا المعنى فلهم الأجر مرتين والآخرين حافظوا على أمره الخاص فلهم الأجريجميعهم وأرضاهم .

وكان رسول الله ص قد قدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناس وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا فلما دنا علي كرم الله وجهه من الحصن (212)ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقهص فرجع حتى لقى رسول الله ص بالطريق فقال يا رسول الله ص لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث .

211) البخاري ومسلم

212) حصن بن قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرقي

قال لم ؟ أظنك سمعت لي منهم أذى . قال نعم يا رسول الله . قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا . فلما دنا رسولالله ص من حصونهم قال يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا (213).

ومر رسول الله ص بنفر من أصحابه بالصورين قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال هل مر بكم أحد ؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة . عليها قطيفة ديباج . فقال رسول الله ص ذلك جبريل بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم (214).

وحاصرهم رسول الله ص خمسا وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب (215)، وقد كان حيى بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا أن رسول الله ص غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم : يا معشر اليهود انه قد نزل بكم من الأمر ما ترون واني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم : قالوا وماهن ؟

---

213) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 659/2
214) سيرة ابن هشام ، 235/2
215) بن سعد ، الطبقات 3/ 74، ابن سيد الناس ، عيون الأثر 3/ 68 .

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد كان تبين لكم أنه لنبي مرسل وأنه للذي كنتم تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولانستبدل به غيره .

قال فإذا أبيتم علي هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه وان نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء . قالوا نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟

قال فإذا أبيتم هذه على فان الليلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلناإلا من قد علمت فأصابه من المسخ ما لم يخف عليك ، قال ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما (216).

ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله ص : أن ابعث الينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف وكان حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا . فأرسله رسول اللهص إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكونفي وجهه فرق لهم . وقالوا له : يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

---

216) الروض الأنف ، 437/3

قال نعم وأشار بيده إلى حلقه " أنه الذبح " قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدمايحتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ثم أنطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ص حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده (217)وقال لاأبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبدا . وقال لا يراني الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا . فلما بلغ رسول الله ص خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال : أما لو جاءني لاستغفرت له . فأما إذ فعلما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ثم أن توبة أبي لبابة أنزلت على رسول الله ص وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله ص (218).

قال ابن اسحاق فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ص . فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج . وقد فعلت في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله ص قبل بني قريظة حاصر بني قينقاع . وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه . فسأله اياهم عبد الله بن أبي ابن سلول فوهبهم له .

217) وتعرف بأسطوانة أبي لبابة واسطوانة التوبة

218) وتعرف بأسطوانة أبي لبابة واسطوانة التوبة . قال ابن إسحاق : إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ص من السحر وهو في بيت أم سلمة . (فقالت أم سلمة) : فسمعت رسول الله ص من السحر وهو يضحك . قالت فقلت : مم تضحك يا رسول الله ؟ أضحك الله سنك ؟ قال تيب على أبي لبابة ، قالت قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ قال بلى ، إن شئت . قال فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت يا أبا لبابة أبشـــر فقد تاب الله عليك . قالت فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله ص هو الذي يطلقني بيده فلما مر رسول الله ص خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه . قال ابن هشام : أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع فيما حدثني بعض أهل العلم والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل { وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم }.

فلما كلمه الأوس قال رسول الله ص : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى . قال فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول الله ص في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة في مسجده كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وقد قال رسول الله ص لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب (219).

وكان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله ص في بني قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه " أنه الذبح " ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة الله ورسوله ص وكان ما كان منه . أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بني قريظة معروفا أيضا لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال : " اللهم لا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة " (220)، وقد بقي مجروحاً إلى أن استدعاه رسول الله ص ليحكم في بني قريظة فأتاه قومه فاحتملوه على حمار وأقبلوا معه إلى رسول الله ص وثم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله ص إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه . قال : لقد آن لسعد أن لاتأخذه في الله لومة لائم .

219) السيرة النبوية لابن هشام (263/3).
220) تاريخ الطبري ، 96/2

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلمته التي سمع منه ، فلما انتهى سعد إلى رسول الله ص والمسلمين . قال رسول الله ص : قوموا إلى سيدكم فانزلوه . فقال رسول الله ص احكم فيهم . قال : فاني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى(221) ذراريهم وأن تقسم أموالهم. فقال رسول الله ص لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله (222).

فأمر رسول الله ص أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد . ثم خرج رسول اللهص إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق فضرب أعناقهم في تلك الخنادق يخرج بهم إليها ارسالا وفيهم عدو الله حيى بن أخطب . وكعب بن أسد رأس القوم وهم 600 أو 700 وقيل أنهم كانوا من 800 إلى 900 ، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ص ارسالا : يا كعب ما ترى ما يصنع بنا ؟ فقال كعب : في كل موطن لا تعقلون . ألا ترون الداعي لا ينزع وانه من ذهب به منكم لا يرجع . هو والله القتل (223).

---

221) تسبى : تؤسر ، والسبي : الأسر

222) البداية والنهاية ، 108/4 ، ابن القيم ، زاد المعاد 117/3، و ابن سيد الناس ، عيون الأثر 2/ 54، وابن هشام 240/2

223) تاريخ الطبري ، 101/2

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ص وأتى بحيى بن أخطب وعليه حلة له فقاحية (224) قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة أنملة لئلا يسلبها . مجموعة يداه إلى عنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ص . قال : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك . ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس . فقال : أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحمة قد كتبت على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه (225).

شفاعة ثابت بن قيس في الزبير بن باطا:

وأقبل ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ص فقال: هب (226) لي الزبير اليهودي أجزه فقد كانت له عندي يد يوم بعاث(227)، فأعطاه إياه، فأقبل ثابت حتى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟ فقال: نعم وهل ينكر الرجل أخاه قال ثابت: أردت أن أجزيك اليوم بيد لك عندي يوم بعاث، قال: فافعل، فإن الكريم يجزي الكريم، قال: قد فعلت، قد سألت رسول الله ص فوهبك لي،

224) فقاحية: قال ابن هشام: ضرب من الوشي ، وقال الواقدي: حلة شقحية: اي حمراء (عن النهاية).
225) تاريخ الطبري ، 101/2
226) الهبة : العطية الخالية من العوض والغرض
227) وكان الزبير قد منَّ على ثابت في الجاهلية في يوم بعاث فأخذه وجز ناصيته ثم خلَّى سبيله، ابن هشام 2/ 243، فأراد ثابت ت رد تلك الصنيعة للزبير.

فأطلق عنه إساره، فقال الزبير: ليس لي قائد وقد أخذتم امرأتي وابني، فرجع ثابتإلى رسول الله ص فاستوهبه امرأته وبنيه فوهبهم له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: رد إليك رسول الله ص امرأتك وبنيك، فقال الزبير: حائط (228)لي فيه أغدق (229)، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به، فرجع ثابت إلى رسول الله ص فوهبه له، فرجع ثابت إلى الزبير فقال: قد رد إليك رسول الله ص أهلك ومالك فأسلم تسلم، قال: ما فعل الجليسان؟ - يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة -؟ وذكر رجال قومه، قال ثابت: قد قتلوا وفرغ منهم، ولعل الله تبارك وتعالى أن يكون أبقاك لخير، قال الزبير: أسألك بالله يا ثابت وبيدي التي عندك يوم بعاث إلا ألحقتني بهم، فليس في العيش خير بعدهم، فذكر ذلك ثابت لرسول الله ص فأمر بالزبير فقتل (230).

وأتي رسول الله ص بكعب بن أسد مجموعة يداه إلى عنقه وكان حسن الوجه، فقال رسول الله ص: "كعب بن أسد ؟" قال كعب: نعم يا أبا القاسم. قال: "وما انتفعتم بنصح ابن خراش وكان مصدقا بي، أما أمركم بإتباعي وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام

---

228) الحائط : البستان أو الحديقة وحوله جدار

229) الغدق: الماء الكثير. القاموس 1180 مادة (غدق).

230) تاريخ الطبري ، 101/2

؟" قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم ولولا أن تعيرني اليهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكني على دين اليهود. قال رسول الله ص: "قدمه فاضرب عنقه". فقدمه فضرب عنقه(231).

وقتل من نساء بني قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسائهم غيرها عن عائشة ل قالت : لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة . قالت والله إنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهرا وبطنا و رسول الله ص يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها . أين فلانة ؟ قالت وأنا والله . قلت ويلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت ولم ؟ قالت حدث أحدثته . قالت فانطلق بها فضربت عنقها . فكانت عائشة تقول : ما أنسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت انها تقتل ،

وكانت طرحت رحى علي خلاد بن سويد فقتلته بإرشاد زوجها لأنه أحب أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين في هذه الغزوة غير خلاد (232).

---

231) المغازي للواقدي ، 516/2

232) تاريخ الطبري ، 101/2 . وكانت هذه المرأةٌ تحت الحكم القرظي فكان يحبها وتحبه، فلما اشـــتد عليهم الحصــــار بكت إليه وقالت: إنك لمفارقي. فقال: هو والتوارة ما ترين، وأنت امرأةٌ فدلي عليهم هذه الرحى، فإنا لم نقتل منهم أحداً بعد، وأنت امرأةٌ، وإن يظهر محمدٌ علينا لا يقتل النســـاء. وإنما كان يكره أن تســـبى، فأحب أن تقتل بجرمها. وكانت في حصـن الزبير بن باطا، فدلت رحى من فوق الحصـن، وكان المسـلمون ربما جلسوا تحت الحصن يستظلون في فينه، فأطلعت الرحى، فلما رآها القوم انفضوا، وأصـابت خلاد بن سـويد فتشـدخ رأسـه، فحذر المسـلمون أصـل الحصـن. فلما كان اليوم الذي أمر رسـول الله ص أن يقتلوا، دخلت على عائشة فجعلت تضحك ظهراً لبطنٍ وهي تقول: سراة بني قريظة يقتلون! إذ سمعت صوت قائل يقول: يا نباتة. قالت: أنا والله التي أدعى. قالت عائشـــة: ولم؟ قالت: قتلني زوجي - وكانت جاريةً حلوة الكلام. فقالت عائشة: وكيف قتلك زوجك؟ قالت: كنت في حصن الزبير بن باطا، فأمرني فدليت رحىً على أصحاب محمد فشدخت رأس رجلٍ منهم فمات وأنا أقتل به. فأمر رسول الله ص بها فقتلت بخلاد بن سويد. أنظر :المغازي للواقدي ، 516/2

ثم أمر رسول الله ص أن يجمع ما في حصونهم من الغنائم والحلقة والسلاح وغير ذلك فكانت من السيوف ألفاً وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفاً وخمسمائة ترساً وجحفة، كما تركوا عدداً كبيراً من الشياه والإبل وأثاثاً كثيراً وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دناناً من الخمر، فوزعت الغنائم وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم، إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهماً، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم لهم ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى ،

وأما ما وجده رسول الله ص والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه ولم يأخذوا منه شيئاً، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ص لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى وأعطى سهمه لورثته . كما رضخ (233) رسول الله ص للنساء اللواتي حضرن ولم يسهم لهن منهن: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ ، وأما الأموال غير المنقولة كالأراضي والديار فقد أعطاها رسول الله ص للمهاجرين دون الأنصار،

233) رضخ له: أعطاه شيئاً ليس بالكثير.

وأمر المهاجرينأن يردواإلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيل وأرض، وكانت على سبيلالعارية، ينتفعون بثمارها، قال تعالى عن تلك الأراضي والديار:

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا [سورة الأحزاب: الآية 27] ثم بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا(234) من سبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم منه خيلا وسلاحا واصطفى (235)لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن جنافة فكانت عند رسول الله ص حتى توفى عنها وهي في ملكه (236).

وفاة سعد بن معاذ ت

كان سعد بن معاذ تلما أصيب في غزوة الأحزاب دعا الله عز وجل قائلاً : (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ص وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهحتى أجاهدهم فيك) (237)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرحه، وتماثل للشفاء(238)

---

234) السبي : الأسرى

235) فضّل واختار

236) وقد كان رسول الله ص عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، قالت : يا رسول الله ، بل تتركني في مالك فهو أخف عليك وعلي ، فتركها وقد كانت حين سباها تعصت بالإسلام وأبت إلا اليهودية ، فعزلها رسول الله ص ، ووجد في نفسه لذلك من أمرها فبينما هو في مجلس مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : « إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة » . فقال : يا رسول الله ، قد أسلمت ريحانة ، فسره ذلك. دلائل النبوة للبيهقي ، 74/4

237) البخاري- الفتح 7 (3901).

238) فقه السيرة للبوطي، ص228.

حتى كانت غزوة بني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمتني حتى تقر عينيمن بني قريظة(239)، وجعل رسول الله ص الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم(240).).

وعندما نفذ حكم الله في يهود بني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشًا والمشركين) فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها(241) ، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات / (242). ثم إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ص حين قبض سعد بن معاذ في جوف الليل (243) معتجرا (244) بعمامة من استبرق فقال يا محمد من هذا البيت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ قال فقام رسول الله ص سريعا يجر ثوبه إلى سعد فوجده قد مات (245).

---

239) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (1389/3) رقم 1769.

240) البداية والنهاية 108/4 ، ابن القيم ، زاد المعاد 117/3، و ابن سـيد الناس ، عيون الأثر 2/ 54، وابن هشام 240/2

241) السيرة النبوية لابن هشام (275/3).

242) صحيح البخاري 51/5، فتح الباري 411/7- 415.

243) الجوف : وسط الليل

244) الاعتجار بالعمامة هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه.

245) دلائل النبوة للبيهقي ، 4 / 29.

ثم إن قومه احتملوه ت إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ص والصحابة ، فقيل: انطلقوا فخرج رسول الله ص وخرجنامعه فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع نعالنا وسقطت أرديتنا عن أعناقنا فشكا ذلك إليه أصحابه يا رسول أتعبتنا في المشي فقال إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة فانتهى رسول الله ص إلى البيت وهو يغسل وأمه تبكيه وهي تقول:

ويل أم سعد سعداً حزامة وجداً

فقال: كل نائحة تكذب إلا أم سعد، ثم خرج به قال: يقوم له القوم: ما حملنا يا رسول الله، ميتاً أخف علينا منه. قال: وما يمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم(246).وقد جاء في النسائي عن ابن عمر تما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشييع جنازة سعد

246) الطبقات الكبرى ، 3/ 428 ، سير أعلام النبلاء ،287/1

فقد قال ص : هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُمّ ضمّة ثم أفرج عنه(247).يعني سعداً. وهاهو رسول الله ص يودع سعداً كما روي عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ص وهو يكيد نفسه فقال: جزاك الله خيراً من سيد قوم. فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك(248).

لقد كان سعد بن معاذ ت من السابقين الأولين لاعتناق هذا الدين الحنيف بل أنه بإسلامه أسلم قومه بني عبد الأشهل وقد أسلم تعلى يد أول سفير أرسله رسول الله ص إلى المدينة كان ذلك على يد مصعب بن عمير ت. وقد شهد سعدت بدراً وكان له الموقف المشجع والشهير والذي حمده عليه رسول الله ص. حيث قال للرسول صبعد كلام جميل ... فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً أنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله. قال فسر رسول الله ص بقول سعد ونشطه(249).وقال ابن الأثير: "ومقاماته في الإسلام مشهورة وكبيرة ولو لم يكن له إلا يوم بدر لكفى"(250).

---

247) سير أعلام النبلاء ، 295/1 ، إسناده صحيح، أخرجه النسائي ، 100/4، في الجنائز.
248) ابن سعد ، الطبقات ، 3/ 429 ، وابن أبي شيبة ، المصنف ، 4/ 216
249) البداية والنهاية ، 262/3.
250) أسد الغابة ، 298/2- 299.

وجاءت غزوة الخندق حيث أراد الله له الحسنى فضرب أروع الأمثلة.

وحتى بعد أن رمي في أكحله استمر مجاهداً في سبيل الله حتى حقق الله ما طلب وشفى قلبه من اليهود الذين خذلوا دين الله وخذلوا رسوله في وقت عصيب ولكن الله ـرد كيدهم في نحورهم، وحكم فيهم سعد ت فأخذوا وقتلوا تقتيلاً على مرأى ومسمع من المسلمين وذلك انتقام من الله جزاء بعض ما فعلوه.

إن هذا الصحابي الجليل قد استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره ... فقد كانت هذه السيادة في العشريناتمن عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد قال تعالى وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ [سورة الأحقاف: الآية 15] .فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه واهتز عرش الرحمن فرحا لوفاته، من دون خلق الله أجمعين.

الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية:

بعد ما حقق المسلمون ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطا واسع النطاق ضد خصومهم على كافة الجبهات، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشاركين في الأحزاب من جهة أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة في ما يلي:

مقتل سلام بن أبي الحقيق :

كان أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق (251) من زعماء اليهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ص عن المدينة بعد نقضهم العهد والميثاق معه فتوجه مع بقية زعماء بني النضير إلى خيبر، فدان لهم يهودها، ومع ذلك كانوا دائما يتطلعون إلى الفرص السانحة للثأر من المسلمين والعودة مرة ثانية إلى المدينة، ورأوا أن هذا الهدف صعب المنال ما لم يتم القضاء على قوة المسلمين المسيطرة في المدينة وما حولها،

251) اختلفت المصادر في ذلك، فمنها ما سماه عبد الله، ومنها ما سماه سلاّم، ومنهم من نسبه إلى أبيه دون ذكر اسمه، والبعض نسبه إلى كنيته فقط، ولكن الأكثر على أنه سلاّم بن أبي الحقيق. انظر : عبد الرزاق، المصنف (408/5) ، وابن هشام، سيرة (273/2)، وابن سعد، طبقات (91/2)، وابن حزم، جوامع (198)، وابن عبد البر، درر ، ص 195.

وأن ذلك لن يكون إلا بعمل ضخم منسق ضد المسلمين، فقوة اليهود وحدها لا تكفي لذلك، ومن خيبر بدأوا اتصالات موسعة وسفارات متعددة كان الهدف منها تحزيب أكبر قوة ممكنة من العرب تغزو المسلمين في عقر دارهم وتستأصلهم، وقد تم تقسيم خطة العمل بين هؤلاء الزعماء لهذا الغرض، فكان سلام بن أبي الحقيق -كما يذكر عروة- له اليد الطولي في تحزيب قبائل غطفان النجدية الكبيرة وحلفائها من "مشركي العرب يدعوهم إلى قتال رسول الله ص ويجعل لهم الجعل(252) العظيم"(253).

ولما انقضى أمر الخندق وبني قريظة بعد أن انفض الأحزاب عن المدينة بغيظهم لم ينالوا خيرا، وقُتل حُيي بن أخطب النضري شريكُ أبي رافع القويفي تحزيب الأحزاب -مع بني قريظة- فنال بذلك القصاص العادل الذي أفلت منه سلام بن أبي الحقيق حيث كان بعيدا في قومه في حصون خيبر فأصبح بالنسبة للمسلمين مجرم حرب خطيرا هارباً لابد من القضاء عليه حتى لا يقوم بتحركات مماثلة في المستقبل تهدد أمنهم وسلامتهم. وكانت الأنصار كما أشار أهل المغازي(254)

252) الجعل: ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعل. (لسان العرب، والقاموس، مادة: جعل)
253) أنظر : ابن حجر فتح (343/7)، البيهقي ، الدلائل (38/4) ، ابن سعد ، الطبقات ، 91/2
254) انظر الزهري، المغازي النبوية (113)، وعبد الرزاق، المصنف (407/5-408)، ابن هشام، سيرة ، 274/3 ، الواقدي، مغازي ، 391/1 ، ابن سعد، طبقات ، (91/2 ، البيهقي، دلائل (33/4).

يتنافسون فيما بينهم تفانيًا في خدمة رسول الله ص : خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [سورة المطففين: الآية 26] . فلما أصابت الأوس كعبَ بن الأشرف بمبادرة بطولية من جانبهم فحققوا بذلك سبقا إسلاميًا على منافسيهم من الخزرج الذين بَدَوْا متحفزين للقيام بدور مماثل، فما أن ندب رسول الله ص إلى ابن أبي الحقيق حتى سارعوا إلى التطوع للانخراط في هذه المهمة الشاقة على صعوبتها وما يحيط بها من أخطار فالرجل بعيد عن قاعدة الإسلام: المدينة، وهو في مَنَعة من قومه وحصونهم وحلفائهم من غطفان، ومن أجل ذلك تخيّر رسول الله صرجالاً منهم فيهم بعض الشروط المناسبة لهذه المهمة الصعبة، فكان عبد الله بن عتيك تقائدًا لهذه السرية حيث تذكر بعض المصادر أنه كان يتقن العبرية بطلاقة -إضافة إلى صلته السابقة بأبي رافع(255). واهتمت روايات أهل المغازي بتسمية بقية أفراد السرية على خلاف بينها في بعضهم(256)

255) ذكر ذلك الواقدي، وكاتبه ابن سعد رواية عن جمع من شيوخه، منهم الواقدي. وذكر خليفة أن أم عبد الله كانت بخيبر، ولكن الواقدي ذكر أنها أمه من الرضـــاعة.انظر : خليفة بن خياط، الطبقات (103)، والواقدي، مغازي (391-392/1)، وابن سعد، طبقات (395/2). وربما يؤيد رواية الواقدي وابن سعد ما وقع في روايات الصـحيح من أن عبد الله بن عتيك تحينما دخل على أبي رافع وضـربه، ثم رجع إليه كلّمه كهيئة المغيث، وتكرر ذلك منه مرارا، ولا يمنع أن يكون الحديث بينهما باللغة العربية التي يتقنها أبو رافع، ولكن ما عرف من خبث اليهود وحذرهم الشديد وجبنهم يجعلنا نستأنس بهذه الروايات على ضعفها. والله أعلم.

256) اتفق أهل المغازي في أسـماء ثلاثة منهم، هم: عبد الله بن أنيس، ومسـعود بن سـنان، وأبو قتادة. انظر : عبد الرزاق، المصـــنف (407-408/5)، ابن هشـــام، ســيرة (274/3)، والبيهقي، دلائل (34/4)، الواقدي، مغازي (391/1)، وابن سعد، طبقات (91/2).

وعلى كلٍّ انطلق هؤلاء المغاوير الشجعان ببسالة لإنجاز مهمتهم، ووصية رسول الله ص يتردد صداها على مسامعهم "لا تقتلوا وليدًا ولا امرأة"(257) حتى إذا ما دَنوا من الحصن الذي يقيم فيه أبو رافع "وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم(258)"(259).قال قائد السرية عبد الله بن عتيك لأصحابه":اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل" فأقبل عبد الله -

وكان قد فكر بحيلة يستطيع بها خداع البواب فيدخل دون أن يفطن إليه فلما دنا من الباب" تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته(260). وقد دخل الناس فهتف البواب:يا عبد الله(261) إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب(262) قال عبد الله: "فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن(263)

257) انظر عبد الرزاق، المصنف (407/5)، وابن هشام، سيرة (274/3) ، البيهقي، سنن ، 77/9، ابن حجر، إصابة ، 341/2 ، الهيثمي، مجمع (198/6).

258) السرح: المال السائم الراعي وسرحت الماشية، أي: أخرجتها بالغداة إلى المرعى (القاموس واللسان: سرح)

259) ابن حجر، فتح (341/7)، ورواها البيهقي ، دلائل (37/4).

260) أي يتبول أو يتبرز وكان الناس في ذلك العهد تعودوا على قضاء حوائجهم خارج بيوتهم، وقد حققت له هذه الحيلة على بساطتها ما كان يهدف إليه حيث ظن البواب أنه من أهل الحصن يقضي حاجته خارجه، فهتف به للدخول غير شاك به.

261) لم يُرد اسمه العلم لأنه لو كان كذلك لكان قد عرفه، فالذي يظهر أنه أراد معناه الحقيقي لأن الجميع عبيد الله. ابن حجر، فتح (343/7)

262) ابن حجر، فتح (341/7)

263) كأنه كان للحصن بابان، باب من داخل، وآخر من خارج.

فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة(264) فأخذته ففتحت به باب الحصن"(265)، "فجعلت كلما أفتح بابا أغلقت عليّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إليّحتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت؟" (266) .

وهنا يتذكر عبد الله توصية رسول الله ص فإن هو ضرب على غير هدى كخبط عشواء لربما أصاب بعض عياله أو نسائه، لأجل ذلك صاح به ليعرف مكانه "أبا رافع، قال: من هذا؟" يقول عبد الله: "فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟، فقال: لِأمك الويل إن رجلا في البيت ضربني قبلُ بالسيف". "قال: فعمدت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا فصاح وأقام أهله،

264) الكوة: بفتح الكاف وبضـــم، والكوة: الخرق في الحائط، وقيل بالفتح غير النافذة، وبالضـــم النافذة. ابن حجر، فتح (343/7)، والقاموس، مادة (كوه)

265) ابن حجر، فتح (342/7) ، البيهقي، دلائل (35/4)

266) ابن حجر، فتح (341/7) ، والبيهقي، دلائل (37/4)

قال: ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيثفإذا هو مستلقٍ على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفىء عليه حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشا حتى أتيت السلم أريد أن أنزل فأسقط منه فانخلعت رجلي(267) فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجل(268) فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله ص فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية"(269) "

فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز"(270) "قال فقمت أمشي ما بي قلبة(271) فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي ص"(272) "فحدثته فقال: ابسط رجلك فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها قط" .(274)(273)

---

267) وفي: "فانكسرت ساقي"، قال ابن حجر: ويجمع بينهما بأنهما انخلعت من المفصل وانكسرت الساق، وقال الداودي: هذا اختلاف، وقد يتجوز في التعبير بأحدهما عن الآخر لأن الخلع هو زوال المفصل من غير بينونة أي بخلاف الكسر.

268) الحجل: أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى. (اللسان: حجل)

269) ابن حجر، فتح (342/7)، والبيهقي، دلائل (35/4)

270) ابن حجر، فتح (341/7)، والبيهقي، دلائل (37/4)

271) أي: ألمّ وعلة. ابن الأثير، النهاية (98/4)

272) ابن حجر، فتح (342/7)، وانظر البيهقي، دلائل (35/4)

273) ابن حجر، فتح (341/7)، وانظر البيهقي، دلائل (37/4)

274) ابن حجر، فتح (155/6) الزهري ، المغازي النبوية ، 113-114-115)، عبد الرزاق، المصنف (407/5-408)، وابن هشام، سيرة (273/3-274-275)، البيهقي، دلائل (38/4)، أبو يعلى، المسند (204/2-205-206) .

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع وأن كل واحد منهم ادعى انه ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله ص (عجلوا بأسيافكم) فأتوا بأسيافهم فنظروا إليها، ثم قال: (هذا قتله)، وهو سيف عبد الله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبد اللهبن أنيس(275). وقد يتوهم القارئ الكريم أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول أن الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أنيس والحق أنه ليس كذلك، ذلك لأن عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل وأنه قد حكي عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع،

ولا يعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والروايات يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدعى أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع، وقد نظر رسول الله ص في دعواهم وفحص سيوفهم وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أنيس ت لظهور أثر الطعام عليه، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه(276).

---

275) الطبقات الكبرى لابن سعد (2/91-92)؛ المغازي للواقدي (1/294)؛ المغاز النبوية للزهري، ص114.
276) الصراع مع اليهود ، 1/189.

وهكذا تم بهذا العمل الجريء الشجاع القضاء على مجرم حرب خطير كان له دور بارز ومميز في تحزيب الأحزاب ضد المسلمين، فنال بذلك القصاص العادل الذي يستحقه بالفعل، فلو أراد الله عز وجل ونجحت مخططات الأحزاب لكان في ذلك القضاء المبرم على المسلمين ولكن الله سلَّم، وفشلت مخططاتهم وهزمهم الله وحده وقتل الله حُيَيّ بن أخطب مع بني قريظة، ثم قضى على أبي رافع بمبادرة بطولية من الخزرج فتخلص المسلمون من عدوين خطيرين كان في بقائهما تهديد كبير لأمنهم وسلامتهم.

ومن فوائد هذا الموقف التي استخرجها ابن حجر حيث قال:

وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر وقتل من أعان على رسول الله ص بيده أو ماله أو لسانه، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين، وجواز إيهام القول للمصلحة، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت الناعي بموته والله أعلم(277).

277) فتح الباري (345/7)

ومما يستفاد من الحديث أيضا النهي عن قتل النساء والولدان إلا إذا كانوا من قوم مبيّتين، وهي مسألة خلافية حيث فيها هذا الحديث وحديث الصعبن جثامة تأنه سمع النبي ص يُسأل عن أهل الدار من المشركين يُبيّتون فيصاب من نسائهم وذراريهم، فقال النبي ص"هم منهم"(278).

وهناك ملاحظة حرص الخزرج على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي ص التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية(279).

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله ص أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كان يتصولان مع رسول الله ص تصاول الفحلين -يعني يتسابقان في خدمته- لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ص غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول اللهص وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك(280).

278) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (237/2)
279) التاريخ الاسلامي ، 177/6
280) السيرة لابن هشام ، 177/6

ومعرفة لغة العدو لها فائدة كبيرة ، فقد استطاع عبد الله بن عتيكأن يصعد إلى حصن أبي رافع وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئناً لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لاسيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزود القيادة بها، والقيادة (281) .وكان من أسباب نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهود: ذهابه لوحده، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه، مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه فقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء(282).

281) الصراع مع اليهود ، 191/1

282) الصراع مع اليهود ، 192/1- 193

وأن الله عز وجل قد حفظ هذه السرية ، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله، وكأنه لا يشكومن علة حتى إذا انتهت مهمته تماماً وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدّث النبي ص خبره قال له: ابسط رجلك، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط(283).

وفي هذه السرية درس عظيم من دروس السيرة النبوية :

وهو الإخلاص لله والعمل للإسلام في أي موقع وأي مكان ، فلا يهم المنصب أو الموقع المهم العمل لله وللإسلام ، فالمناصب في الإسلام تكليف وليست تشريف فوجود عبد الله بن أنيس جنديا في هذه السرية، وليس أميراً فيها له دلالته الكبرى في الإخلاص والعمل لله فهو العقبى البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات

283) البخاري، المغازي رقم 4039.

فلابد أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة وهوالذي نجح نجاحاً باهراً في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفراً، فهو ملئ بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه عز وجل قبل أن يكون عند الناس.

فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس أحد، ولكنه الإخلاص الذي خطه النبي ص في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ، فطالما أرسل عليه الصلاة والسلام سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان، في غمار الجنود(284).

284) انظر: التربية القيادية ، 148/4

سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت أول حملة عسكرية وجهها النبي ص لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب والتخلص من بني قريظة هي تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضربة (285) على مسافة سبع ليالٍ من المدينة(286).

وكانت تلك العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين؛ وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة كان من هذه القبائل النجدية، حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين فحاصربهم أهل المدينة(287).

ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجه صسرية من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب،

285) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.

286) الواقدي ، المغازي ، 2/ 534، ابن كثير ، البداية ، 4/ 168، الذهبي ، تاريخ الإسـلام ، المغازي ، ص 351.

287) الصلابي ، السيرة النبوية ، 311/2

وذلك في العاشر من محرم سنة 6هـ وقد داهموهم على حين غرة فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم(288) . وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ص فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟، فقال عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليّ والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ص وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟

288) البخاري- الصحيح (فتح الباري- حديث 4372)، مسلم- الصحيح ، 3/ 1386 (حديث 1764)، أحمد- الفتح الرباني 21/ 88- 90، أبو داود- السنن (كتاب الجهاد 3/ 129)، ابن شبّة- تاريخ المدينة 2/ 433- 9 بإسناد البخاري ولفظه.

قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله ص، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ص. وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ص يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام، فاستجاب النبي ص لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم، فامتثل ثمامة أمر نبيه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة(289).

إنها المعاملة الحسنة للناس جميعا ولو كانوا من الأعداء ، فقد عامل النبي ص ثمامة معاملة حسنة ولاطفه وألان له القول وهو ملك قبضته ص مما جعل ثمامة تتغير نظرته للإسلام ونبيه ص وأزال البغض وأنبت الحبفي قلبه، كما أنه تأثر بالجو العام السائد بين المسلمين وأخلاقهم الفاضلة ومعاملتهم الكريمة، لذلك فإنه بادر إلى إعلان إسلامه . وهو الإسلام الذي يغير سلوك المؤمن فيضع قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين، كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول ص عليه السلام.

289) البخاري- الصحيح (فتح الباري- الأحاديث 5393- 5398)، مسلم- الصحيح 3/ 1386 (حديث 1764) ، ابن هشام ،السيرة النبوية ، 2/ 381

غزوة بني لحيان:

بعد غزوة الأحزاب بدأت الدولة الإسلامية مرحلة الهجوم والمبادرة مصاقا لقوله ص يوم الأحزاب "نغزوهم ولا يغزوننا" (290).وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء، وإن كان تأديبهم قد تأخر قليلا فذلك مرده أن ديارهم كانت متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة . والمعارك الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، فلم يكن يري رسول الله ص أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأي أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج إليهم في مائتي صحابي، في ربيع الأول أو جماد الأولى سنة ست من الهجرة(291). ولم يعلن وجهته، واتبع أسلوب التعمية، وقد سمعت به بنو لحيان فهربوا إلى رءوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم (292).

---

290) صحيح البخاري 48/5 ، مسند الإمام أحمد 262/4.
291) الواقدي ، مغازي ، 2/ 535، ابن سعد ، الطبقات 2/ 79.
292) الواقدي ، مغازي 2/ 535، ابن سعد ، الطبقات 2/ 79.

لقد كانت بنو لحيان على غاية التيقظ والانتباه، فقد بثّت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك فما كاد النبي ص يقترب بجيشه من منازلهم حتى انسحبوا منها فارين، وهربوا في رؤوس الجبال، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النبي ص بجيشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتون إليه بمن يقدرون عليه، واستمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أيّ أثر لهذه القبائل تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، وأقام ص في ديارهم يومين لإرهابهم وتحديهم وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا(293).

رأى النبي ص أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان(294) وهناك استدعى أبا بكر الصديق، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليبث الذعر والفزع في نفوسهم، فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كُراع الغميم(295)،

---

293) الواقدي ، مغازي 2/ 535، ابن سعد ، الطبقات 2/ 79.
294) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة.
295) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد.

وهو مكان قريب جداً من مكة، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي ص ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، هذا هو الذي هدف إليه النبي ص بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها.

أما الصديق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفزع في نفوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي ص فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة(296).و عندما وصل النبي ص إلى بطن (غران) (297)، حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترّحم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم وقال: "هنيئا لكم الشهادة!" ثم انصرف رسول الله، ص، إلى المدينة وهو يقول: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ! وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة (298).

سريّة عكاشة إلى الغمر(299):

وفي ربيع الأول سنة 6 هـ انتدب النبي ص عكاشة بن محصن في أربعين رجلا من أصحابه إلى بني أسد في ماء الغمر، ورغم أنهم أسرعوا، فقد نذر بهم بنو أسد فهربوا، ونزلت السريّة على مياههم وأصابت الطلائع من دلّهم على بعض ماشيتهم، ووجدوا مائتي بعير فغنموها وساقوها إلى المدينة (300).

---

296) الواقدي ، مغازي 2/ 535، ابن سعد ، الطبقات 2/ 78- 80
297) غران بضم أوله: وادٍ بين أَمَج وعسفان، وأمج يعرف اليوم بخليص وعسفان يبعد (80) كيلاً من مكة. معجم المعالم الجغرافية 224 و208.
298) الواقدي ، مغازي 2/ 535، ابن سعد ، الطبقات 2/ 79 ، ابن سعد ، غزوات الرسول وسراياه ، 39/1
299) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة.
300) ابن سعد ، الطبقات 2/ 85 بدون إسناد، وانظر: خليفة بن خياط- تاريخ ص 85.

سريّة محمد بن مسلمة إلى ذي القصّة (301):

وفي ربيع الآخر سنة 6 هـ بعث النبي ص الصحابي محمد بن مسلمة في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعوال، فكمن لهم القوم حتى ناموا، فقتلوهم كلهم وسقط محمد بن مسلمة بين أصحابه جريحا فظنوه ميّتا. وقد هيأ اللّه له بعد ذلك أحد المسلمين الذي أنقذه وأطعمه وسقاه وحمله إلى المدينة، فبعث النبي ص أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحدا ووجدوا نعما وشاء فساقوها غنيمة ورجعوا إلى المدينة (302).

سريّة زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم:

وفي ربيع الآخر سنة 6 هـ بعث النبي ص سريّة عليها زيد بن حارثة، فورد الجموم(303)،فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها : حليمة، فدلتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسري، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول اللهص للمزينية نفسها وزوجها (304).

301) موضع على الطريق من المدينة إلى الشام، لا يبعد كثيرا عن المدينة وهو منزل ثعلبة وعوال.

302) الواقدي ، مغازي 3/ 551، ابن سعد ، الطبقات 2/ 85.

303) بفتح الجيم وميمين بينهما واو -، وهو ماء وقيل: أرض لبني سُـــليم. و الجموم: يبعد عن مكة من جهة الشمال قرابة 30 كيلاً وهي منطقة واسعة جداً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان 2/ 163، ومعجم المعالم الجغرافية للبلادي،ص 85 .

304) ابن سعد ، الطبقات 2/ 86 بدون إسناد.

سريّة زيد بن حارثة إلى العيص (305):

وفي جمادى الأولى سنة 6 هـ بعث النبي ص زيدا في مائة وسبعين راكبا من الصحابة ليتعرضوا لقافلة تجارية قرشية قادمة من بلاد الشام، فتمكنوا من احتوائها وما فيها، وغنموا فيها فضة كثيرة كانت لصفوان بن أميّة، وأسروا عددا ممن كان مع القافلة، منهم أبو العاص بن الربيع الذي استجار بزوجته زينب بنت رسول اللّه ص فأجارته، وقبل الرسول ص إجارتها ورد عليه ما أخذ منه (306). وعاد أبو العاص إلى مكة حيث رد ما كان معه من أموال القوم وأماناتهم، ثم أعلن إسلامه في مكة، وهاجر إلى المدينة فرد عليه النبي ص زوجته زينب على نكاحها الأول (307).

سريّة زيد بن حارثة إلى الطّرف (308):

وفي جمادى الآخرة سنة 6 هـ بعث النبي ص زيدا في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة بالطرف، فهرب القوم وكان بلغهم أن رسول اللّه ص قد سار إليهم، وأصابت السريّة نعما وشاء غنيمة، وعادوا إلى المدينة سالمين (309).

---

305) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال.
306) ابن سعد ، الطبقات 2/ 86 .
307) ابن هشام ، السيرة 2/ 368
308) ماء قريب من المراض دون النخيل على مسافة قريبة من المدينة، انظر: ابن سعد ، الطبقات 2/ 87، ياقوت ، معجم 4/ 31.
309) الواقدي ، مغازي 2/ 555، ابن سعد ، الطبقات 2/ 87.

سرية زيد بن حارثة تإلى وادى القرى(310)

اختلف أرباب المغازي والسير في سبب هذه السرية ، فقد ذكر ابن إسحاق الذي أنَّ سببها كان سرية بعثها رسول الله ص قبل هذه السرية مباشرةً وبقيادة زيد بن حارثة تنفسه إلى وادي القرى.

فلقي به بني فزارة(311) وأصيب بها ناسٌ من أصحابه، وانفلت زيد من بين القتلى. فلمّا قدم زيد بن حارثة، نذر أنْ لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو فزارة"(312).

وذكر الواقدي وابن سعد أنَّ زيد بن حارثة تخرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي ص، فلمّا كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة، من بني بدر ، فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم ثُمّ استبلَّ زيد(313)، وقدم على رسول الله ص، فأخبره، فبعثه رسول الله ص إليهم"(314).

310) وادي القُرَى - بضـم أوَّله، وفتح ثانيه، والقصـر - جمع قرية، وهو وادٍ بين المدينة والشـام، من أعمال المدينة، وهو بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة، وبها سُـمّي وادي القُرى، والنسـبة إليه "واديّ"، ويُعْرَف وادي القُرى اليوم ب "العُلا" بضـم العين ثُمَّ لام وألف من غير همزة، والنسـبة إليه "عُلَوِيٌّ"، وهي مدينة عامرة شمال المدينة النبوية على قرابة "350" ميلاً، كثيرة المياه والزرع والأهل، ويصُبُّ واديها في وادي الجزل، ثُمَّ يَصُبُّ الجزل في وادي الحمض "أضم"، وهي ملاصقة للحجر ديار ثمود، متَّصِلة بها اتِّصالاً تامّاً، لا يفصِلُ بينها وبين المدائن حدود ولا جبال.

311) انظر: ابن قتيبة، المعارف ، ص 83، القلقشندي، قلائد الجمان ، ص 113.

312) ابن سـيد الناس ، عيون الأثر 142/2 ، ابن هشـام ، سـيرة 617/4، أبو نعيم دلائل534/2، الحلبي ، سيرة181/2، والزرقاني ، شرح 164/2.

313) استبلَّ: أي برأ.

314) الواقدي ، مغازي ، 564/2 ، ابن سعد ، طبقات 90/2.

ولكن الراجح هو الرأي الأول الذي ذكره ابن إسحاق، فبالإضافة إلى كونه أقوى إسناداً مدعوماً بالواقع، فالمسلمون في تلك الفترة لم يفرضوا سلطانهم على تلك المنطقة بَعْدُ، حتَّى تصبح طريقاً سالكةً لتجارتهم إلى الشام، بل كانوا في موقف المواجهة مع القبائل القاطنة في تلك المنطقة خاصّةً وأنَّها حليفة قوية ليهود خيبر الذين كان المسلمون يعُدُّون العُدَّة السريعة لمواجهتهم بعد الحديبية وتوقيع الهُدنة مع قريش، نظراً لنشاطات زعمائهم المعادية للمسلمين ودورهم الكبير في تأليب الأحزاب في الخندق والذي شاركت فيه بعض تلك القبائل(315) القاطنة في تلك المنطقة بفعالية كبيرة(316).

وكانت أحداث تلك السرية في شهر رجب من السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، إذ وصلت إلى النَّبِيَ ص معلومات هامّة عن تحركات مُعَادية تقوم بها امرأة من بني فزارة، ذات شأن فيهم، ومنْزلة ورئاسة يُقال لها أمّ قرفة(317)

315) ذكرت الروايات التاريخية أنَّ من القبائل التي شـــاركت بقوة في غزوة الأحزاب: قبائل غطفان، وهي فزارة، وبنو مرة، وأشـــجع، وغيرها.انظر: ابن الجوزي: الوفا بأخبار المصـــطفى، ص 692 .وهذه القبائل جميعها تسكن تلك المنطقة وتشارك بحلف قديم مع اليهود في خيبر وما حولها

316) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 52

317) هي فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التي جرى فيها المثل: "أمنع من أُمّ قِرْفة" لأنه كان يُعَلَّق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين فارساً كلهم لها ذو محرم، كُنّيت بابنها قِرْفة، قتله النَّبِيُّ - ص- فيما ذكر الواقدي، وذكر أنَّ سائر بنيها وهم تسعة قُتِلُوا مع طليحة يوم بزاخة.أنظر :الروض الأنف ، 528/7.

"قد جهَّزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها، قالت: اقدموا المدينة فاقتلوا محمّداً فقال النَّبِيّ ص: اللهم اثكلها بولدها. وبعث إليهم زيد بن حارثة" ت على رأس سرية، لم تذكر الروايات قوتها، ولكنها كانت على ما يبدو قليلة العدد "فالتقوا بالوادي(318)،وقُتِلَ أصحاب زيد" ي منهم ورد بن مرداس وارتُثَّ(319) زيد بن حارثة من بين وسط القتلى"(320).فلمّا قدم زيد بن حارثة، نذر ألاَّ يمس رأسه غُسل من جنابة حتى يغزو فزارة فلمّا استبلَّ من جراحه بعثه رسول الله ص في جيشٍ إلى بني فزارة فيهم سلمة بن الأكوع ت، ويقودهم أبو بكر الصّدّيق ت ، فكمنوا النهار وساروا الليل، ومعهم دليل لهم كما يذكر الواقدي(321).قال سلمة ت: فلمّا دنونا من الماء (322) أمرنا أبو بكر، فعرّسنا(323) قال: فلمَّا صلَّينا الصّبح، أمرنا أبو بكر فشننا الغارة(324) ، فقتلنا على الماء مَن قتلنا ،"فكان شعارنا: أمت. أمت. قال: فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين

---

318) يعني وادي القرى.

319) رثُثَّ: بالبناء للمجهول، أي حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رمق.

320) ابن سيد الناس ، عيون ، 142/2

321) مغازي ، 564/2.

322) الحاضر الذي كانت تقيم عليه بنو بدر من فزارة، ربما كان في وادي القرى.

323) التعريس: النزول آخر الليل للراحة.

324) شن الغارة: أي فرَّقها عليهم من كُلِّ جانب.

وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلمّا رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم(325) معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتّى أتيت بهم أبا بكر"(326).

ويجزم أهل المغازي أنَّ تلك المرأة هي أُم قرفة، وأنَّها قُتِلَت، وقُتِلَ بعض ولدها (327). وذكر عروة أنَّ زيد بن حارثة تلمّا قدم المدينة مع أهل السرية أقبل إلى رسول الله ص "قالت عائشة ل ، ورسول الله ص تلك الليلة في بيتي فقرع الباب، فخرج إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه، وقبّله رسول الله ص" (328).

سريّة عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وفي شعبان سنة 6 هـ بعث النبي ص الصحابي عبد الرحمن بن عوف على رأس سريّة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل، وأمره أن يقاتل من كفر باللّه، وبألّا يغل ولا يغدر ولا يقتل وليدا ، يقول عبد الله بن عمر: دعا رسول الله ص عبد الرحمن بن عوف فقال:

---

325) القشع: بقاف ثُمَّ شين معجمة ساكنة: النطع، وهو الفَرْو الخَلِق.

326) ابن هشام ، سيرة 617/4،الواقدي ، مغازي565/2،ابن سعد ، طبقات 91/2، أبو نعيم ، دلائل 535/2، الحلبي ، سيرة 180/3، الزرقاني ، شرح164/2.

327) ابن هشام ، سيرة 617/4،الواقدي ، مغازي565/2،ابن سعد ، طبقات 91/2، أبو نعيم ، دلائل 535/2، الحلبي ، سيرة 180/3، الزرقاني ، شرح164/2.

328) دلائل النبوة رقم (426) ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء 1/ 226- 227 ، ابن هشام ، السيرة النبوية 2/ 617، ابن سعد الطبقات، 2/ 90.

تجهز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غدإن شاء الله، قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلن فلأصلين مع النبي ص الغداة فلأسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف ، قال: فغدوت فصليت فإذا أبو بكر وعمر وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ص قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول اللهص لعبد الرحمن: ما خلفك عن أصحابك؟ قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجرف (329) وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك وعليّ ثياب سفري ، قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه، قال ابن عمر: فدعاه النبي ص فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها ثم قال: هكذا فاعتم يا ابن عوف. قال: وعلى ابن عوف السيف متوشحه،

ثم قال رسول الله ص : اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدًا، قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يسقطوا وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا،

329) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

وأذاق بعضهم بأس بعض ، قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما حل بها دعاهم إلى الإسلام فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيّا وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النبي ص يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي ص أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ص أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبني بها، ثم أقبل بها وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (330).

هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، فدومة الجندل قريبة من تخوم الشام، وهذا يدل علي أن الدولة الإسلامية بدأت تفكر أبعد من حدود الجزيرة العربية وتحديداً الإمبراطورية الرومانية.

ولقد اشتملت هذه الغزوة علي نموذج من نماذج آداب الحرب في الإسلام فالحرب إذا كانت نوع من العنف والقسوة لدي جيوش الغير ، إلا إنها بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ والحسد ،

330) الواقدي ، المغازي 2/ 560 ، ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 89 ، ابن هشام ،السيرة 4/ 369.

وسيلة لتحقيق الحق والعدل وهي أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلاً في نفوسهم، ولذلك طالما كانت محفوفةً بأخلاقيات الإنسانية التي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف.فنهى رسول الله ص عبد الرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذمن الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان .

سريّة علي بن أبي طالب إلى فدك(331):

لم تكن منطقة عمليات السرايا قرية فدك ذاتها، وإنَّما المنطقة المحيطة بها والتي كانت تسكنها قبيلة بني مرّة، وقبيلة بني سعد بن بكر، ولكن باعتبار قربها من فدك تجوّز أهل المغازي بنسبتها إليها".وكانت هذه السرية في شعبان سنة ست من مهاجرة رسول الله ص(332)".ويمكن القول أن هذه السرية ضمن الجهود المبذولة من النَّبِيَ ص لتحطيم الحلف الخيبري الذي كان قائماً بين يهودها والقبائل المحيطة بخيبر، والذين كان لهم دورٌ بارزٌ في غزوة الأحزاب، وذلك ضمن الإستراتيجية العسكرية التي وضحها بعد هزيمة الأحزاب بقوله: "(الآن نغزوهم ولا يغزونا)".

331) فدك: قرية بشمال الحجاز قرب خيبر ، على بعد يومين، وقيل: ثلاثة من المدينة
332) المغازي 562/2 - 563، الطبقات 89/2 - 90.

فبينما كان النَّبِيّ ص في طريقه إلى خيبر وصلت إليه معلومات مفادها أنَّ هناك تحرّكات تحشديّة معادية للمسلمين، يقوم بها رجل من بني سعد بن بكر يُدْعَى: "وبَر بن عُليم، في جمعٍ من قومه بني سعد، بالقرب من فدك، وذلك لمناصرة يهود خيبر ضد المسلمين، وأنَّهم بصدد الاتفاق معهم على إمدادهم بقوَّةٍ منهم مقابل جزء من تمر خيبر يُجْعَل لهم".

وكعادته صفي إستراتيجيته المتبعة دائماً مع أعدائه وبخاصّةً الأعراب في مباغتتهم وضربهم قبل استكمال تحشُّدهم، وتطوّر استعداداتهم، سارع صفي تجهيز سرية، عبارة عن دورية قتال تعرّضية(333) قوّتها مائة رجل بقيادة علي بن أبي طالب ت ، فسار الليل، وكمن النَّهار، حتَّى انتهى إلى الهمج"(334) فأصاب عيناً، فقال: "ما أنتَ ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟ قال: "لا علم لي به، فشدُّوا عليه فأقرّ أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم، ويقدمون عليهم، فقالوا له: "فأين القوم ؟

333) التعرُّض: هو التوجه بصورة عامَّة إلى طلب الخصم بقصد ملاقاته ومقاتلته في ساحات القتال. أنظر : العقيد محمَّد صفاء ، الحرب 21 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 123

334) الهَمَج: ماء وعيون عليه نخل. الحموي ، معجم 410/5، السمهودي ، وفاء 1327/4 .

قال: "تركتهم وقد تجمّع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبَر ابن عُلَيّم". قالوا: "فسر بنا حتى تدُلَّنا". قال: "على أن تُؤَمِّنوني". قالوا: "إن دللتنا عليهموعلى سرحهم أمّنَّاك، وإلاَّ فلا أمَانَ لك". قال: "فذاك، فخرج بهم دليلاً لهم"(335). بعد أن كان عيناً عليهم، فسار بهم في فدافد(336)،

وآكام(337)، حتى ساء ظنهم به واعتقدوا أنه ربّما كان يخدعهم، حتى أفضى بهم إلى سهلٍ من الأرض"فإذا نعَم كثير، وشاء(338)، فقال: "هذه نَعمهم وشاؤهم، فأغاروا عليه فضموا النعم والشاءقال: "أرسلوني". قالوا: "حتى نأمن الطلب، ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم فتفرّقوا"(339) وهربت بنو سعد بالظَّعن، ورأسهم وَبَر بن عُلَيّم"(340)".

فقال الدليل للقائد علي بن أبي طالب ت: "علامَ تحبسني؟ قد تفرّقت الأعراب وأنذرهم الرعاء، قال علي ت : "ليس بعد، فإنَّا لم نبلغ معسكرهم فانتهى بهم إليه فلم ير أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير وألفا شاة(341)

335) الواقدي ، مغازي ، 562/2

336) الفدفد: الفلاة، والمكان الصّلب الغليظ والمرتفع. (قاموس: الفدفد).

337) الأكمة ـ محرَّكة : التل من القف من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشدّ ارتفاعاً مِمَّا حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً. (القاموس: الأكمة).

338) الشاء: جمع شاة.

339) الواقدي ، مغازي ، 562/2

340) ابن سعد ، طبقات، 90/2

341) الواقدي ، مغازي ، 562/2

فعزل علي صفيَ النَّبِي ص(342) لقوحاً(343) تُدْعَى الحفذة، ثُمَّ عزل الخُمُس، وقسّم سائر الغنم على أصحابه"، ثُمّ مكث ثلاثاً أوقَعَ أثناءَها الرّعْبَ في قلوب الأعراب"(344). يُحَدِّثنا أحد شهود العيان فيقول: إني لبوادي الهَمَج، إلى يديع(345)ما شعرت إلاَّ ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون، فقلت: "ما دهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وبَر بن عُلَيم، فقلت: "ما هذا المسير؟ قال: "الشرّ سارت إلينا جموع محمّد، وما لا طاقة لنا به، قبل أن نأخُذَ للحرب أهبتها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا، وهو صنَعَ بنا ما صَنَع". قلت: "ومَن هو؟ قال: "ابن أخي، وما كُنَّا نعُدّ في العرب فتىَ واحداً أجمع قلب منه". فقلت: "إني أرى أمر محمّد قد أمن وغلظ، أوْقَعَ بقريش فصنع بهم ما صنع ثُم أوقع بأهل الحصون بيثرب، قينُقَاع، وبني النَّضِير، وقريظة، وهو سائرٌ إلى هؤلاء بخيبر". فقال لي وبَر: "لا تخش ذلك". إنَّ بها رجالاً، وحُصُوناً منيعة، وماءَ واتناً(346) لا دنا منهم محمّدٌ أبداً، وما أحراهم أن يغزوه في عُقْرِ داره". فقلت: "وترى ذلك؟ قال: "هو الرأي لهم"(347)".

---

342) الصَّفِيُّ: ما كان خالصاً للنبيّ ص.

343) اللقوح: الناقة الحلوب. (القاموس: لقوح).

344) ابن سعد ، طبقات، 90/2

345) يديع: أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، ويذكر البلاذري أنّها تُسَمَّى اليوم: (الحويط). (البكري: معجم 144/4، البلاذري: رحلات 19).

346) وتن الماء: أي: دام ولم ينقطع. (الصحاح 2212).

347) الواقدي ، مغازي ، 563/2

وهكذا نجح عليّ ت في مهمّته نجاحاً باهراً وقدم المدينة ولم يلق كيداً"(348)".

أوضحت هذه السرية، والسرايا السابقة بعض الاستراتيجيات العسكرية التي كان يطبقها الرسول ص القائد ص مع أعدائه، وهي:

ما ورد أنَّ سبب السرية هو تلك الأخبار التي بلغت النَّبِيَّ ص عن تحرّكات بني سعد بن بكر المعادية للمسلمين، ذلك يعطينا دلالة واضحة أنَّ النَّبِيَّ ص كان يتتبع أخبار الأعداء أولاً بأول".ومثل هذه الروايات تؤكِّد لنا أنَّ رسول الله ص كانت لديه شبكة شبه منظَّمة من العيون، مبثوثة بين أعدائه، جعلته دائماً وأبداً في الصورة معهم، يعرف سكناتهم وحركاتهم أولاً بأول، مِمَّا مكَّنه كثيراً من القضاء على مخطَّطاتهم العدوانية ضد المسلمين ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل، مِمَّا وفَّر على المسلمين الكثير من الجهد، وحقن الكثير من الدماء التي كانت ستسيل لو تمكَّن أولئك الأعداء من استكمال مخطَّطاتهم تلك وتنفيذها ضد المسلمين، وذلك ما كان يصبو إليه المصطفى صفي جهاده مع أعدائه، لأنه عليه الصلاة والسلام كان حريصاً أشدَّ الحِرْصِ على بلوغ أهدافه السامية من ذلك الجهاد المُقَدَّس بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ودونما إراقة دماء كثيرة".

348) ابن سعد ، طبقات ، 90/2 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 126

إلاَّ ما كان من بعض أولئك الأعداء الذين كانوا يشكلون تهديداً قوياً ومستمراً للمسلمين بقواهم العسكرية والسياسية، والتي كانت تشكل حاجزاً قوياً أمام الناس لاعتناق ما يريدون بحرَية، فكان لابُدَّ من الإثخان في تلك القوى المسيطرة لإضعافها والقضاء على هيمنتها في المنطقة".

إنَّ نظام المخابرات تفتخر به اليوم الدول المتقدمة مادياً، وله أولوية كبيرة في جيوشها المتطورة، وتمارسه بأساليب غير حضارية ارتبطت بالظلم والعدوان والغدر".ولكنَّ الرسول ص القائد صكان له قصب السّبق فيه، كما أنه مارسه في نطاق الحرب الفروسية المشرفة، دون المساس بالأخلاقيات والمُثُل العُليا".كما أن تحرّك هذه السرية في مسيرٍ ليلي إلى أرض العدو، وهذه إستراتيجية ذكية تزوَّد بها قائد السرية من مُبْتَكرِ الاستراتيجيات العسكرية، رسولِ الله ص التي استطاع بها تحقيق مبدأ الكتمان مع أعدائه، حرمهم من معرفة نواياه واتجاه حركة قوّاته".

لقد كانت معظم القبائل التي غزاها النَّبِيَ ص، وبعث إليها سراياه قبائل "قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء،

ولكن عناية الله أولاًثُمّ المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كله، فاستطاع النَّبِيّ ص بقواته القليلة بالنسبة لقوات تلك القبائل، أن يتغلَّب عليها ويقضي على نياتها العدوانية، ويُلْقِي الرُّعْبَ في نفوسها ونفوس القبائل الأخر التي سمعت بانتصار المسلمين"(349)".
أيضاً ما ورد في هذه السرية والسرايا قبلها من شن الغارة على الأعداء ومباغتتهم في ديارهم في غفلةِ منهم، وتلك إستراتيجية اتَّبعها الرسول ص مع نوعٍ معيّنٍ من الأعداء، وهم الأعراب، حيث كان دائماً يترصّد أخبارهم من خلال شبكة العيون المبثوثة في ديارهم، فكان دائماً يباغتهم في ديارهم قبل استكمال جاهزتهم واستعدادهم، فالأعراب أشداء إذا ما استعدوا جيداً للقتال، وانتظمت صفوفهم فيه، عندها تكون مقاومتهم أكبر، وقتالهم أشرس، كما أنَّهم يستطيعون وبسرعة فائقة حشد قوّة إمدادات كبيرة يتمكنون بها من الإطباق على أعدائهم وحصرهم من كُلِّ الجهات، وقد عرف رسول الله ص ذلك من خلال تجارب سابقة معهم في الرجيع، وبئر معونة، وسرية زيد بن حارثة ت الأولىإلى بني فزارة، وغيرها".

349) خطّاب ، الرسول ص القائد ، ص 216 – 217 ، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 126

لذلك فإنَّ في شَنِّ الغارة عليهم ومباغتتهم قبل ذلك، ولو من قوة مهاجمة صغيرة تُفْقِدهم اتزانهم، وتبُثُّ الرَّعْبَ في قلوبهم(350)، وتثير الاضطراب والفوضى في صفوفهم، فيسهل حين ذاك السيطرة عليهم وهزيمتهم، كما حدث في هذه السرية".

وفي الاستيلاء على أموال الأعراب التي كانت في غالبها من الماشية والإبل، إضعافٌ لهم اقتصادياً، لأنَّها تعدّ عصب حياتهم اليومية، لاعتمادهم عليها كثيراً، كما أنَّ في ذلك تحفيزاً للمسلمين وتشجيعاً لهم للغزو في سبيل الله لإصابة الغنائم الدنيوية العاجلة، إضافةً لما رُصِدَ لهم من الأجر العظيم عند الله، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنَّ ذلك يعدّ دافعاً وهدفاً من أهداف الجهاد في سبيل الله بقدر ما هو ممارسة المسلمين لحقهم المشروع في الغنائم التي أحلَّها الله لهذه الأُمَّة واختصَّها به دون غيرها من الأُمم السابقة".

350) المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب، وتأيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شللٍ متوقَّعٍ في تفكير القائد الخصم. أنظر : خطّاب ، الرسول القائد ص ، ص 451

كما أنَّ ذلك يُعَدُّ تمشياً مع عادة قديمة متَّبعة لدى العرب في حروبهم في الجاهلية أبقى عليها الإسلام بعد تنظيمها وتقنينها وفق أنظمة الشريعة الإسلامية"(351).

وإلى جانب هذه السرايا تذكر المصادر الخاصة بالمغازي والسير معلومات متضاربة عن «سرية زيد بن ثابت إلى بني فزارة» (352)ولم يرد عن هذه السرية مايثبت في الصحيحين، والتناقض والتضارب كبير في مرويات كتب المغازي والسير بشأنها.

سرية عبد الله بن رواحة إلى اليَسير بن رِزَام اليهودي:

بعد أن نجح المسلمون في القضاء علي أبي رافع زعيم يهود خيبر بعد حُيي بن أخطب اختارت اليهود رجلا شجاعًا منهم ليكون أميرا عليهم هو اليَسيربن رزام(353).

وما أن تقلد اليسير مهام منصبه كزعيم اختير تقديراَ لشجاعته حتى أصرّ على أن يثبت لهم أنه أهل لهذا الاختيار

---

351) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية ، ص 130

352) ابن سعد ، الطبقات 2/ 89 ، وانظر ، الواقدي- المغازي 2/ 564، الطبري ، تاريخ 2/ 643 وأورد ذلك الإمام مسلم في الصحيح 3/ 1375- 76 (حديث 1755)، الإمام أحمد (عنه ابن كثير في البداية 4/ 264)، والبيهقي- دلائل النبوة 4/ 290، ورواية ثانية في الطبري ، تاريخ 2/ 643- 644 رواية مغايرة يرد فيها أن أبا بكر الصديق ت كان أميرا لسرية إلى بني فزارة علما بأن رواية أهل المغازي مضطربة من ناحية المتن ومناقضة لأوامر النبي ص بشأن الأسرى.

353) انظر : أبا نعيم، دلائل ، 517/2، وابن سيد الناس، عيون ، 164/2، البيهقي، دلائل ، 294/4، ابن هشام، سيرة ، 618/3

فقرر إكمال مهمة سلفه والقيام بمحاولة جديدة لحشد اليهود وحلفائهم غطفان وتوجيه طاقاتهم لمباغتة المسلمين في عقر دارهم(354).

ولكن عين رسول الله ص لا تنام عن أعداء الإسلام المتربصين ولا تغفل عن تحركاتهم العدوانية ضد قاعدته الحصينة. حيث وصلته الأخبار من أحد عيونه في خيبر بنوايا اليَسير ونشاطاته المشبوهة ضد المسلمين ، و أراد رسول الله ص أن يستوثق من تلك الأخبار(355) فأرسل دورية استطلاع منطقة صغيرة إلى خيبر قوتها ثلاثة أفراد بإمرة قائد خبير بمنطقة خيبر وأهلها هو عبد الله بن رواحة ت. انطلقت الدورية في رمضان ووصلت خيبر سرّاً وهناك وزع القائد أفرادها على حصونها الرئيسية-الشق، والنطاة، والكتيبة.فدخلوا مع الناس يسمعون منهم ويرون بأعينهم حال أهل خيبر وما يتكلمون به، خلال أيام رجعوا بعدها إلى رسول الله ص بتقرير مفصل يؤكد المعلومات السابقة، فقرر رسول الله ص بعث عبد الله بن رواحة ت ثانية إلى خيبر ولكن هذه المرة على رأس(356)

354) ذكر الواقدي أنه قام في اليهود فقال: إنه والله ما سار محمد إلى أحد من اليهود إلا بعث أحدا من أصحابه فأصاب منهم ما أراد، ولكني أصنع ما لا يصنع أصحابي، فقالوا: ما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابك؟، قال: أسير في غطفان فأجمعهم، فسار في غطفان، فجمعها، ثم قال: يا معشر اليهود، نسير إلى محمد في عقر داره، فإنه لم يُغز أحد في داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد، قالوا: نعم ما رأيت، أنظر : الواقدي، مغازي ، 566/2

355) ذكر الواقدي عن ابن عباس ب: أنه قدم على رسول الله ص خارجة بن حسيل الأشجعي، فاستخبره رسول الله ص ما وراءه فقال: تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب اليهود. أنظر : الواقدي، مغازي ، 566/2-567

356) ذكر عروة في روايته أن قائد السرية هو عبد الله بن عتيك. انظر أبا نعيم، دلائل ، 517/2 ، والبيهقي، دلائل ، 293/4

فرقة مغاوير تطوعية قوتها ثلاثون رجلا من بينهم عبد الله بن أنيس ت للإفادة من شجاعته وخبرته في هذا المجال.

و"في شوال سنة ست من مهاجرة رسول الله ص"(357) انطلقت السرية إلى هدفها في خيبر بعد الاتفاق على خطة استدراجية مغايرة تماما لخطة الفرقة الخزرجية التي قتلت أبا رافع، ومشابهة لخطة الأوسية التي قتلت كعب بن الأشرف، وكانت ترتكز أساسا على تقرير الدورية الاستطلاعية الذي ورد فيه معلومات دقيقة عن اليَسير وشخصيته فوضعت الخطة بناء على ذلك فأتوه فقالوا: إنا أرسلنا إليك رسول الله ص ليستعملك على خيبر"(358).تردد اليَسير في البداية، ولكنهم ما زالوا به يغرونه ويمنّونه حتى طمع فيما قالوا، وشاور اليهود فخالفوه في الخروج، ولكنه أصرّ عليه فخرج في رفقة ثلاثين يهوديّا لحراسته ركب كل منهم مع رديف من المسلمين أفراد السرية، وحمل عبد الله بن أنيس اليَسير على بعيره ،"فلما بلغوا قرقرة ثبار(359)

357) الواقدي، مغازي ، 566/2، وابن سعد، طبقات ، 92/2 واللفظ له. وقد أوردها البيهقي وابن القيم بعد فتح خيبر. وانظر البيهقي، دلائل (293/4-290)، وابن القيم، زاد (360/3-359).

358) أبا نعيم، دلائل ، 517/2

359) قرقرة ثبار، قاع جنوب خيبر بين الحرة والصهباء المعروفة اليوم باسم جبل عطوة، على ستة أكيال من خيبر يقسمه الطريق إلى المدينة، ويسمى اليوم قعقران.البلادي، معجم ، ص253 ، وقد ذكر البكري أنها تسمى قرقرة الكدر. البكري، معجم (1066/3).

وهي من خيبر على ستة أميال ندم اليَسير فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله فزجر بعيره، ثم اقتحم يسوق بالقوم، حتى إذا استمكن من اليَسير ضرب رجله فقطعها، واقتحم اليَسير وفي يده مخرش(360) من شوحط(361) فضرب به وجهعبد الله فشجه شجة مأمومة(362)، وانفكأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شدًّا، ولم يصب من المسلمين أحد وقدموا على رسول الله ص فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح، ولم تؤذهحتى مات(363).

لقد كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءَ، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أن الحقد اليهوديالذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين، هو الذي غلب آخر الأمر وأفسد الخطة كلها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم.

---

360) بميم مكسورة فخاء معجمة ساكنة فراء مفتوحة: عصا معوجة الرأس.

361) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي. (القاموس، واللسان، والصحاح: "شحط").

362) الشجة المأمومة: التي تبلغ أم الرأس وهي الجلدة التي تجمع الدماغ. الصحاح مادة "شج"، والصالحي، سبل (180/6).

363) أبو نعيم، دلائل ،517/2، البيهقي، دلائل ،293/4، وابن سيد الناس، عيون ،164/2، ابن هشام، سيرة ،618/3، ابن سعد ، طبقات ،92/2، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 185.

والحرب إن لم تكن غليظة وشديدة، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وستجعل الحرب تفنى كل شيء وتأكل كل شيء، فلابد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولابد من الشدة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولابد من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم(364).

سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة 6 هـ . وذكروا أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ص، بيد أن المبعوثين لم ينجحا في الاغتيال، لا هذا، ولا ذاك فقد ذكر المؤرخون : أن أبو سفيان بن حرب كان قد قال لنفر من قريش بمكة : ما أحد يغتال محمدا ، فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا ، فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله ، وقال له : إن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فإني هاد بالطريق خريت ، ومعي خنجر مثل خافية النسر ، قال : أنت صاحبنا ، فأعطاه بعيرا ونفقة ، وقال : اطو أمرك ، فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينمه إلى محمد ، قال العربي : « لا يعلم به أحد » . فخرج ليلا على راحلته (365)

---

364) التربية القيادية ، 189/4 الى 192،الســـيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 2 /375

365) الراحلة : البَعيرُ القويّ على الأسفار والأحمال، ويَقَعُ على الذكر والأنثى

فسار خمسا ، وصبح ظهر الحرة صبح سادسة ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ص حتى أتى المصلى ، فقال له قائل : قد توجه إلى بني عبد الأشهل ، فخرج يقود راحلته حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل ، فعقل راحلته ثم أقبل يؤم رسول الله ص، فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجدهم فدخل ، فلما رآه رسول الله ص قال لأصحابه : « إن هذا الرجل يريد غدرا والله حائل بينه وبين ما يريد » . فوقف فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول اللهص: « أنا ابن عبد المطلب » ، فذهب ينحني على رسول الله ص، كأنه يساره فجبذه (366)

أسيد بن الحضير وقال له : تنح عن رسول الله ص، وجبذ بداخلة إزاره (367) ، فإذا الخنجر ، فقال رسول الله ص: « هذا غادر » ، وسقط في يدي العربي وقال : دمي دمي يا محمد ، وأخذ أسيد يلبب ، فقال رسول اللهص: « اصدقني : ما أنت ؟ وما أقدمك ؟ فإن صدقتني نفعك الصدق ، وإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به » ، قال العربي : فأنا آمن ؟ قال : « فأنت آمن » فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له ، فأمر به فحبس عند أسيد ، ثم دعا به من الغد فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك » ، قال : وما هو ؟ قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله » ، قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق الرجال

366) الجبذ : الشد والجذب بقوة

367) الإزار : ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن

فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي ، وضعفت نفسي ، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان ، ولم يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ، فجعل النبي ص يتبسم ، وأقام أياماثم استأذن النبي ص فخرج من عنده ، فلم يسمع له بذكر . فقال رسول اللهص لعمرو بن أمية الضمري ولسلمة بن أسلم بن حريش : « اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب ، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه »

قال عمرو : فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج فقيدنا بعيرنا فقال لي صاحبي : يا عمرو ، هل لك في أن نأتي مكة ونطوف بالبيت سبعا ، ونصلي ركعتين ؟ فقلت : إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق ، وإنهم إن رأوني عرفوني ،وأنا أعرف أهل مكة ، إنهم إذا أمسوا انفجعوا بأفنيتهم (368) ، فأبى أن يطيعني فأتينا مكة فطفنا سبعا وصلينا ركعتين ، فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني وقال : عمرو بن أمية ، واحزناه ، فأخبر أباه ، فنيد بنا أهل مكة فقالوا :ما جاء عمرو في خير ، وكان عمرو رجلا فاتكا في الجاهلية ، فحشد أهل مكة وتجمعوا ، وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا في طلبهما ، واشتدوا في الجبل ، قال عمرو : فدخلت غارا فتغيبت عنهم ، حتى أصبحت ، وباتوا يطلبون في الجبل ، وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحلتنا ،

368) الفناء : الساحة في الدار أو بجانبها

فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمانبن مالك بن عبيد الله التيمي يختلي لفرسه حشيشا ، فقلت لسلمة بن أسلم : إن أبصرنا أشعر بنا أهل مكة ، وقد أقصروا عنا ، فلم يزل يدنو من باب الغارحتى أشرف علينا ، وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري ، فسقط وصاح وأسمع أهل مكة ، فأقبلوا بعد تفرقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبي : لا تحرك وأقبلوا حتى أتوا عثمان بن مالك فقالوا : من قتلك ؟ قال عمرو بن أمية ، قال أبو سفيان : قد علمنا أنه لم يأت بعمرو خير ،

ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا كان بآخر رمق (369)ومات ، وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم يحملونه ، فمكثنا ليلتين في مكاننا ثم خرجنا ، فقال صاحبي : يا عمرو بن أمية ، هل لك في خبيب بن عدي ننزله ؟ فقلت له : أين هو ؟ قال : هو ذاك مصلوب حوله الحرس ، فقلت : أمهلني وتنح عني ، فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك فاقعد عليه ، وأت رسول اللهص فأخبره الخبر ، ودعني فإني عالم بالمدينة ، ثم اشتددت عليه حتى حللته ، فحملته على ظهري ، فما مشيت به إلا عشرين ذراعا حتى استيقظوا ، فخرجوا في طلب أثري ، فطرحت الخشبة ، فما أنسى وقعها دب ، يعني صوتها ، ثم أهلت عليهمن التراب برجلي ، فأخذت بهم طريق الصفراء ، فأعيوا فرجعوا ، وكنت لا أدرك مع بقاء نفس ، فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه ،

---

369) الرمق : بقية الروح وآخر النفس

وأتى النبي ص فأخبره وأقبلت حتى أشرفت على الغليل غليل ضجنان ، فدخلت في غار فيه معي قوس وأسهم وخنجر ، فبينا أنا فيه إذ أقبل رجل من بني بكر من بني الدئل أعور طويل يسوق غنما ومعزى ، فدخل علي الغار فقال : من الرجل ؟ فقلت : من بني بكر فقال : وأنا من بكر ، ثم اتكأ فرفع عقيرته (370) يتغنى يقول:

فلست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي : والله إني لأرجو أن أقتلك ، فلما نام قمت إليه ، فقتلته شر قتلة قتلتها أحدا قط ، ثم خرجت حتى هبطت ، فلما أسهلت في الطريقإذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار ، فقلت : استأسرا ، فأبى أحدهما فرميته فقتلته ، فلما رأى ذلك الآخر استأسر ، فشددته وثاقا (371) ، ثم أقبلت به إلى النبي ص، فلما قدمت المدينة رآني صبيان وهم يلعبون ، وسمعوا أشياخهم يقولون : هذا عمرو ، فاشتد الصبيان إلى النبي ص فأخبروه ، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهاميه بوتر قوسي ، فلقد رأيت النبي ص يضحك ، ثم دعا لي بخير وكان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام (372) .

---

370) العقيرة : الصوت
371) الوثاق : ما يُشد به كالحبل ونحوه
372) دلائل النبوة للبيهقي ، 3 /409 ، ابن سعد ، الطبقات 2/ 93- 94 ، الطبري ، تاريخ 2/ 542.

سريّة كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

في شوال من العام السادس الهجري قدم على رسول الله ص رهطمن الأعراب من عُكَل(373) وعرينة(374)،وكان هؤلاء الأعراب بهم هزال شديد من الجوع(375) "فبايعوه على الإسلام"(376)"ثم قالوا: يا رسول الله آونا وأطعمنا".

فأنزلهم رسول الله ص في الصفة(377) وأكرمهم(378)، ونظرا لكونهم كانوا بادية أهل ضرع، ولم يكونوا أهل ريف(379) -كما ذكروا لرسول الله ص(380)- لم يستطيعوا التأقلم مع جو المدينة وهوائها، فأخرجهم ص من المدينة إلي إبل الصدقة حول المدينة فشربوا من ألبان الإبل فصحّوا"(381) ، فعَدَوا على الراعي فقتلوه -بعد أن مثَّلوا به(382) وهربوا بالإبل "فجاء الخبر في أول النهار"(383) إلى رسول الله ص.

---

373) عكل: قبيلة من تيم الرباب.
374) عرينة: حي من يجيلة.
375) ابن حجر، فتح (337/8)، عبد الرزاق، المصنف (106/10).
376) ابن حجر، فتح (230/12).
377) الصـــفة: مكان في مؤخر المســـجد النبوي مكان القبلة الأولى، ظُلل وأُعد لنزول الغرباء والمســـاكين وضـــعفاء المســـلمين ممن لا مأوى له، وإليها ينســـب أهل الصـــفة. انظر : أبا نعيم، الحلية (320/1)، السمهودي، وفاء الوفاء (453/2-454.
378) ابن حجر، فتح (230/12).
379) أي كانوا أهل ماشية ولم يكونوا أهل زرع.
380) ابن حجر، فتح (178/10)، وابن جرير الطبري، تفسير (206/4).
381) ابن حجر، فتح (230/12).
382) ذكر أصـــحاب المغازي: أنهم ذبحوه وغرزوا الشـــوك في عينيه. انظر: ابن هشـــام، سـيرة ، 461/4 ، الواقدي، مغازي ،569/2، ابن سـعد، طبقات ،93/2، وزاد "أنهم قطعوا يده ورجله وغرزوا الشـوك في لسانه وعينيه حتى مات".ابن كثير، تفسير ، 50/2 ، والهيثمي، مجمع ،294/6.
383) ابن حجر، فتح ، 335/1

وعلى وجه السرعة، قام بتجهيز دورية قتالية تعقُّبية، قوتها عشرون شابّا أنصاريّا وأسند القيادة فيها إلى كرز بن جابر الفهري ت وزوّدهم بقائف لاقتفاء الأثر(384) ، اختزالا للجهد والوقت، لأن إهدارهما لا يتناسب مع الحالة الأمنية التي تتطلب سرعة القبض على هؤلاء المجرمين المفسدين في الأرض والاقتصاص منهم فورا وبحزم؛ نتيجة ما قاموا به من إخلال وزعزعة بالأمن، وغدر وخيانة ونكران للجميل، إضافة إلى ارتدادهم عن الإسلام.

انطلقت الدورية ، يتقدّمها القائف، وكما هو مخطط له تم القبضعلى العصابة في وقت وجيز جدًّا "فما ترجّل النهار حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وَمَا حَسَمَهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقون فما سقوا حتى ماتوا"(385). قال أنس بن مالك ت: "فرأيت الرجل منهم يكدم(386) الأرض بلسانه حتى يموت"(387).

---

384 والقايف: بالقاف والتحتية، الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، والجمع: القافة.

385) ابن حجر، فتح ، 111/12

386) كدمه ويكدمه: عضَّه بأدنى فمه.

387) ابن حجر، فتح ، 141/10، وخبر السرية صحيح متفق عليه. فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواطن عدة. انظر ابن حجر، فتح (335/1، 153/6، 141/10-142، 178، 109/12-111-112،وأخرجه مسلم أيضا في صحيحه. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (154/11-155-156-157) ، أبو داود، سنن (531/4-532-534-535-536.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الله تعالى أنزل فيهم قوله تعالى

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [سورة المائدة: الآية 33]

وقد يتصور البعض أن هذا العقاب كان جائرا وشديدا، لكن بالنظر إلى ما قام به هؤلاء من جرائم، وقياسا لما فعلوه من أعمال لا يقرها العقل؛ فضلا عن الدين الذي تمرّدوا عليه وارتدوا عنه، فنقول: إن العقاب الذي نالهم كان عادلا وكان الجزاء من جنس العمل فهم قد ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا وسرقوا ومثّلوا وحاربوا الله ورسوله واستهانوا بكل المبادئ والقيم الإنسانية. (388).

إن حادثة العرانيين ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة ونزول آيات بيناتفي هذا الحكم، فقد حصر المولى عز وجل جزاء المحاربين في أربعة أمور وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر. ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله ص ، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها، وتقتيلهم وسلبهم ونهب ممتلكاتهم ظلماً وجوراً لا مستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل، والصلب،

388) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 206

وقطع الأيدي، والأرجل من خلاف، والإبعاد من مخالطة العامة، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لا تتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، ولكي يطهرهم ما يوقع بهم من عقاب، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم.

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين وقد علل تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم مدة الحياة الدنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقية معهم إلى يوم القيامة، لكون الرب جل وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثم استثنى جل وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع في أسلوب حكيم مؤثر داع إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاءوا تائبين قبل القدرة عليهم، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم وهذا نوع من العلاج في غاية الدقةوالإنصاف وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها ما لا يخفى على ذي عقل لبيب.وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلحفلا يقنط أحد من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شركا وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجاً لا مزيد عليه وذلك واضح مما يلي:

وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله ص.

عظم الجزاء المرتب على الحرابة أيا كان هو.

مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه حتى لا يكون سده في وجهه حافزاً له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه(389).

389) د.عبدالله الشنقيطي ، لاعلاج القرآن الكريم للجريمة، ص313، 314، 315 ، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 2 /340

سرية الخبط أو بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر

تعتبر سرية الخبط، استمرارا لسياسة النبي ص العسكرية لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديًّا على المدى الطويل، ولتعويض المهاجرين، ولو جزءاً بسيطًا مما فقدوه من أموال ومتاع استولت عليها قريش عند مغادرتهم وطنهم مكة.

فقد حشد رسول الله ص مجموعة من رجاله المخلصين في ثلثمائة صحابي من المهاجرين والأنصار(390) وأسند قيادتها إلى أمين الأمه أبي عبيدة بن الجراح ، وحدد لهم الهدف المنشود وهو رصد عير المشركين ربما قافلة تجارية مساحلة عن طريقها المعتاد، وقد تمر بمنطقة نفوذ قبيلة جهينة على ساحل البحر الأحمر.ونظرا للضائقة الاقتصادية التي كان يمر بها المسلمون في ذلك الوقت، فقد كان تموين هذا الجيش ضعيفا بحيث لم يجد لهم رسول الله صغير جرابمن تمر زودهم إياه، إضافة إلى أزوادهم الخاصة التي كانت في مجملها قليلة أيضا.

390) في رواية النسائي ثلاثمائة وبضعة عشر. انظر النسائي، سنن (209/4).وقد نصت رواية الواقدي وكاتبه ابن سعد علي "ثلثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، وفيهم عمر بن الخطاب. انظر الواقدي، مغازي (774/2)، وابن سعد، طبقات (132/2) ، ابن حجر، فتح (77/8)، والنووي على مسلم (89/13).

وأثناء المسير لموقع العمليات، فَنِي زاد السرية العام "فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع فكان مزودي تمر"(391) لأجل البركة في اجتماع الأزواد وحتى يتساوى الكل في القوت فلا يتميز أحد عن أحد.

ورغم هذا الإجراء المنضبط من القائد الذكي إلا أن جرابا من تمر وهو مقدار ما تجمع من الزاد الخاص للجيش لم يكن يكفي جيشا مكونًا من ثلثمائة رجل.

فكان أبو عبيدة يقوتهم من هذا الجراب كل يوم "قبضة قبضة" ثم تمرة تمرة. عندما قارب من الانتهاء، وقد أدرك الجند صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن.يقول جابر تأحد أفراد هذه السرية: "كنَّا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل"(392) وكم هو رائع هذا الموقف المدهش حقًّا والذي أدهش قبلنا وهب بن كيسان رحمه الله الذي سأل جابراتدهشًا: "ما تغني عنكم تمرة؟، فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت"(393).

---

391) المزود بكسر الميم وسكون الزاي ما يجعل فيه الزاد. ابن حجر، فتح (79/8)، وإرشاد الساري (427/6).

392) مسلم بشرح النووي (84/13).

393) ابن حجر. (77/8).

ومع ذلك لم يؤثر ذلك على معنويات الجيش، ويستسلموا للأمر الواقعبل فكروا في حيلة يُبقون على أنفسهم حيث اضطروا إلى أكل ورق الشجر.قال جابر ت: وكنا نضرب بعصينا الخبط(394)، ثم نبله بالماء فنأكله"(395).

"فسمى ذلك الجيش جيش الخبط"(396)، وقد أثر هذا الموقف في قيسبن سعد بن عبادة تما أحد جنود هذه السرية الشجاعة وهو رجل من كرماء الصحابة المشهورين فنحر للجيش "ثلاث جزائر(397)، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه"(398).ولم يكن الله عز وجل ليتخلى عن جند له خرجوا في سبيله ابتغاء مرضاته وطمعا فيما عنده من الأجر، فبينما هم كذلك من الجهد والجوع الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتًا ضخمًا، فألقاه على الشاطئ، ويصف لنا جابر بن عبد الله تما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: "

---

394) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط خَبَط بالتحريك، فعل بمعنى مفعول وهو من علف الإبل، والخبط ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويخفف بالماء. والقاموس المحيط، مادة (خبط).

395) مسلم بشرح النووي (84/13).

396) ابن حجر، فتح (78/8).

397) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة. (القاموس، مادة جزر).

398) ابن حجر فتح (78/8) وذكر الواقدي في روايته أن قيس بن سعد تاستدان هذه الجزر من رجل جهني، وأن أبا عبيدة تنهاه قائلا: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك. الواقدي، مغازي (774-775/2)، هذا وقد رجح ابن حجر هذا السبب عند ذكر الاختلاف في سبب نهي أبي عبيدة لقيس، فقال: قيل لخشية أن تفنى حمولتهم، وفيه نظر؛ لأن القصة أنه اشترى من غير العسكر، وقيل: لأنه كان يستدين على ذمته، وليس له مال، فأريد الرفق به، وهذا أظهر والله أعلم، فتح (81/8).

وانطلقنا على ساحل البحر، فرَفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم(399)، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر(400)، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ص وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرا، ونحن ثلثمائة حتى سمِنَّا، قال: لقد رأيتنا نغترف من وقب(401) عينيه بالقلال(402) الدهن. وتقتطع منه الفدر(403) كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير معنا فمر من تحتها(404)

---

399) الكثيب: التل من الرمل. (القاموس: الكثب).

400) العنبر سـمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس، قال الأزهري: العنبر سـمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسـين دراعا يقال لها بالة، وليسـت بعربية ، والمقصـود به حوت العنبر *SPERMWHALE* وهو مميز الشكل والهيئة، ومظهره ملتوٍ، ويتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم والبوز المَربع الذي يخزن فيه كمية كبيرة من الدهن، وهو من أكبر أنواع المسـننات من الحيتان حيث يتراوح طول الذكر منه خمسة عشر إلى عشرين مترا، ويزن حوالي من خمسة وثلاثين إلى ستين طنًّ، والأنثى أصغر من الذكر، وتعتبر الحبارة هي غذاءه الرئيسـي إذ يصـيد منها كميات كبيرة وضـخمة، وقد وجد في معدته من هذه الحبارات ما يبلغ طوله عشـرة أمطار. والعنبر من الكائنات البحرية الغواصـة فهو يسـتطيع الغوص إلى عمق ألف متر أو أكثر، كما يسـتطيع البقاء في الأعماق حوالي سـاعة من الزمان. انظر الفيروز آبادي، القاموس، وابن منظور، لسـان مادة: عنبر، وانظر ابن حجر، فتح (80/8)، والحلبي، سيرة (203/3)، ومنير البعلبكي: المورد قاموس انكليزي - عربي (ص: 886).

401) الوقب هو النقرة التي تكون فيها العين. ابن منظور، لسان، مادة (وقب).

402) جمع قلة وهي الجرة العظيمة، وذلك مما يقور الظن بأنه حوت العنبر حيث إنه يتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضـخم الذي يتركز فيه كمية كبيرة من الدهن. انظر :د. موسـى العمودي ،الثدييات البحرية، ص 14

403) جمع فدرة وهي القطعة من اللحم. القاموس ، واللسان (فدر).

404) وفي : "فأخذ أبو عبيدة ضـلعا من أضـلاعه فنصـبه، ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش، وأطول جمل فحمله عليه، فمر تحته". انظر ابن حجر فتح (78/8)، ومسلم بشرح النووي (88/13) واللفظ له. قال ابن حجر: وهذا الرجل لم أقف على اسمه، وأظنه قيس بن سعد بن عبادة فإن له ذكرا في هذا الغزوة، وكان مشهورا بالطول. ابن حجر، فتح (80/8).

وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ص. فقال: "ما حبسكم"؟، فقلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة". فقال: "هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ص منه فأكله"(405).

ومن الدروس المستفادة من هذه السرية :

جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه.

وأن الجيوش لا بد لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه ،وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم، قالوا: يستحب للرفقة من الناس وإن قلوا أن يؤمروا بعضهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة وأن لا يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم(406)

405) ابن حجر، فتح (130/6، 77/8-78)، والقسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (427/6-428)، مسلم بشرح النووي (84/13-85-87-88-89-90)، ابن هشام، سيرة (632/4-633) الواقدي، مغازي (774/2-775-776-777) وابن سعد، طبقات (132/2)، والطبري، تاريخ (32/3-33).

406) مسلم بشرح النووي (86/13).

مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة، وأن الاجتماع على الطعام يستدعي البركة فيه(407).ومن الفوائد أيضا جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض قاله ابن القيم(408).وما أقدم عليه أصحاب السرية من أكل الخبط دليل على قوة شكيمتهم وتمتعهم بفكر سليم هداهم إلى أكل ورق الشجر كي يبقوا على أنفسهم ولا يستسلموا للجوع فيَقضى عليهم، مع عظيم توكلهم على اللهعز وجل الذي لم يخب ظنهم فأطعمهم رزقا من عنده من حيث لا يحتسبون. وصدق الله القائل في محكم كتابه:

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)[سورة الطلاق: الآية 2،3].

وقد سمعنا في وقتنا الحاضر بأن الجيوش الحديثة لديها فرق خاصة تسمى (قوات الصاعقة) يتم تدريبها تدريبا عنيفا يتضمن تعويدهم على أكل ورق الشجر وغيره استعدادا لما قد يلاقونه من جوع في مهماتهم،

---

407) ابن حجر، فتح (81/8).
408) بن القيم، زاد المعاد (159/2)

وقد رأينا الصحابة ي في هذه السرية يأكلون ورق الشجر، كل تلك الفترة بدون تدريب مسبق على ذلك وليس ذلك بمستغرب من جنود سامية أهدافهم يملأ الإيمان جوانحهم(409).

وفي هذه السرية أيضا بيان ما كان عليه الصحابة يمن الزهد في الدنيا، والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال(410).

وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة المائدة: الآية 3].

وقد قال الله تعالى أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [سورة المائدة: الآية 96]. ،

---

409) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 122

410) مسلم بشرح النووي (86/13).

وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة "أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه"، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا " أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال" حديث حسن، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: "أُحل لنا كذا، وحُرِّم علينا" ينصرف إلى إحلال النبي ص وتحريمه، فإن قيل: فالصحابة في هذه الواقعة كانوا مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله ص ونحن مضطرون فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مستغنين عنها لما أكلوا منها(411).

وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ص وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الاجتهاد وعدم تمكنهم من مراجعة النص. وقد اجتهد أبو بكر وعمر بين يدي رسول الله ص في عدة من الوقائع وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة لا في أحكام عامة وشرائع كلية؛ فإن هذا لم يقع بين يدي رسول الله ص من أحد من الصحابة في حضوره ص البتة(412).

411) ربما أنهم توقفوا بادىء الأمر لعدم معرفتهم بالحكم الذي لم يرد فيه نص قاطع من رسول الله ص إلا في وقت متأخر في الحديث الذي يرويه أبو هريرة الذي أسلم بعد فتح خيبر - في البحر، وفيه: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أخرجه مالك .انظر موطأ مالك (22/1، 495/2) ، والألباني صحيح سنن الترمذي (21/1)، وصحيح سنن أبي داود (19/1)، وصحيح سنن النسائي (14/1)، وصحيح سنن ابن ماجه (67/1) .

412) مسلم بشرح النووي ، 86/13 ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 124

لقد شهد العام السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعاً أو تحطم عدواً أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: الآن نغزوهمولا يغزونا، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية(413).

---

413) التربية القيادية ، 189/4 الى 192،الســـيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 2/375